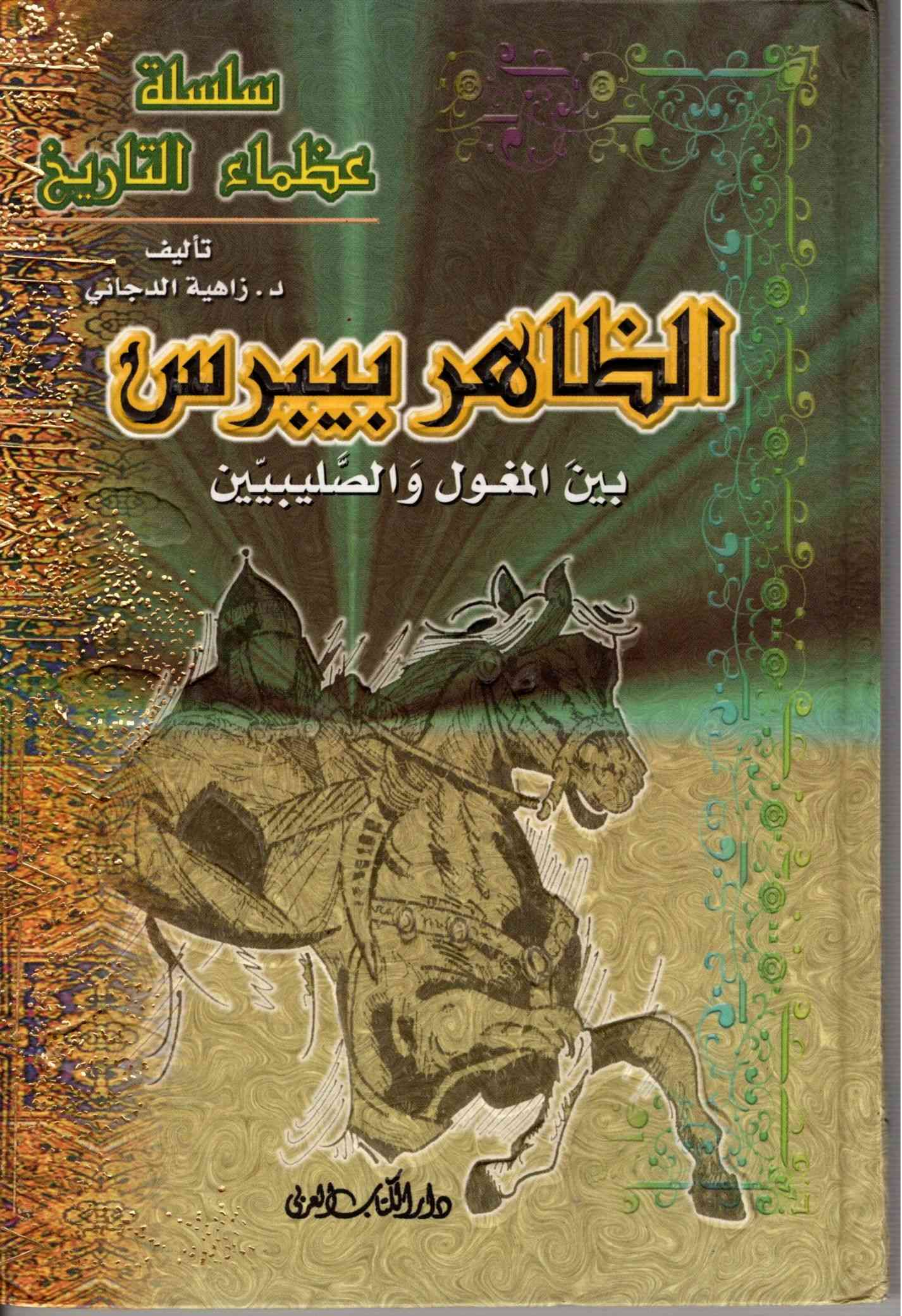


سلسلة
عظماء التاريخ
تأليف
د. زاهية الدجاني
الظاهر بيبرس
بينَ المغول وَالصَّليبيّين
دار الكتاب العربي

الظّاهِر بيبرس
بينَ المغول والصّليبيّين

عُظَمَاءٌ مِنَ التَّارِيخ

الظَّاهِرُ بِيبَرْس

بَيْنَ المغول وَالصَّلِيبِيِّين

تأليف
د. زاهية الدجاني

الناشر
دار الكتاب العربي

ISBN: 9953-27-122-4

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

ISBN 9953-27-122-4

9 789953 271224

دار الكتاب العربي

بيروت - شارع فردان - بناية بنك بيبلوس - الطابق الثامن
هاتف 800811 - 861178 - 862905 - 800832 (009611) فاكس 805478 (009611)
ص. ب. 5769-11 بيروت 2200 1107 لبنان - بريد إلكتروني academia@dm.net.lb
موقعنا على الوب www.dar-alkitab-alarabi.com و www.academiainternational.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدّمة

إن المتأمّل في التاريخ البشري، يرى أن الحضارات القائمة على التوازن بين المادة والروح أطول عمراً من الحضارات القائمة على المادة مع نكران للروح. ومع أن الهزّات العنيفة النابعة عن مطامع خارجية تحدث دوياً هائلاً بالنسبة للأمم في كل من المنحيين؛ إلاّ أن الهزَّة تكون أعنف في حجمها وآثارها في حالة التنكّر للدين، إذ قد تنهار الدولة كلية، فتقوم مكانها دولة أخرى، أو قد تضعف بشدّة، لو كانت الدولة كبرى، بحيث تصبح عادية، بحجم محدود، دون أهمية تذكر عالمياً. لكن في حالة وجود الدين، فالهزّة، مهما بلغت من قوة، ومهما طال أمدها، إلا أنه يمكن بالنتيجة احتواؤها بعد طول كفاح. ومصاحبة لذلك، تعود الحركة التاريخية للسير بفعالية أكبر، ولو تحت اسم دولة أو مملكة جديدة. قد ينضمّ لمعتقدها الديني مجموعة من الغزاة الذين جابهتهم بقوة، وتمتصّ ما يمكن امتصاصه من الآخرين مع الزمن. في عهد الملك الظاهر بيبرس (ت. ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧ م)، مؤسس دولة المماليك، كانت البلاد الإسلامية تجاهد ضدّ الصليبيين بعد

نكسات حدثت، إثر وفاة البطل صلاح الدين الأيوبي (ت. ٥٨٩هـ/ ١١٩٣ م)، بطل «حطّين» و«بيت المقدس» (٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م). وفي خضم المواجهة مع الصليبيين «هبّ الإعصار المغولي من الشرق يجتاح الأخضر واليابس، ويدمّر معالم المدنية والحضارة ويمسح المدن من الخارطة ويقتل السكان ويشرّدهم وينهبهم... (فدفعت) اليأس إلى (نفوس الناس) ورأوا أن الزحف المغولي لا يمكن وقفه»(١).

١ ـ الإسلام والمسلمون كهدف للصليبيين والتتار معاً

إذن، ها نحن نرى العالم الإسلامي، الذي عانى طويلاً من الصليبيين، والذي كان لا يزال في حالة من المعاناة، يفاجأ بهجوم، بالغ الخطورة، من قبل المغول، لتزيد المحن في المنطقة العربية الإسلامية، وكأن ذلك الزمان يحمل في طياته سياسة مرسومة هدفها تهديم الإسلام، وضرب العرب والمسلمين ضربات موجعة حتى لا تقوم لهم قائمة، من قبل كل أعداء الإسلام قاطبة، سواء بدين سماوي أم بشرك. ولا غرو في ذلك، إذ أن الإسلام والمسلمين اكتسحوا كثيراً من بقاع الأرض بعد فترة، ليست بطويلة، إثر وفاة النبي محمد ﷺ مضعضعين موازين الأمم. ولقصر تلك المدة، مع ما واكبها وخالطها من سياسة حكيمة مستلهمة من وحي فضائل الروح، ورؤية البصيرة، كان الترحيب بالإسلام مشهوداً، وفي غمار هذا الترحيب، أخذ العرب من علوم وثقافات وفنون الأمم السابقة كل ما لا يتعارض مع الدين القيّم، وبنوا عليه

---

(١) صالح الأشتر وآخرون (إشراف)، أعلام خالدون: **الظاهر بيبرس** (بيروت: دار الشرق العربي، لا. ت.)، ص ١٤.

الكثير، وصحّحوا وابتكروا، إلى أن عمّت شمس حضارتهم المشرق، وانتقلت لإسبانيا في الغرب التي خضعت لحكم المسلمين طويلاً، فأثار ذلك أحقاد العالم غير الإسلامي وضغينته.
ومما لا ريب فيه أن الحقد لا يقتصر على الإطار الفردي في حياة البشرية، بل يشمل إطار الأمم أيضاً، ومصدره الحسد. فحين ازدهرت الحضارة العربية الإسلامية، باتت الأم التي تجمع خلاصة الحضارات السابقة، ولكن مع إضافات أنها هزّت عالم الاكتشاف العلمي والأدبي بكل روافده، مع عملية صهر ومع تلك الإضافة، باتت الحضارة العربية الإسلامية، وكأنها هي الكل بالكل، وبات التاريخ كأنه يمضي بمسيرة فعّالة للغاية، وكان الإسلام هو نقطة بدايتها وامتدادها، بالرغم من وجود حضارات عظيمة سابقة، كالحضارة البابلية والآشورية والإغريقية والرومانية، والفارسية، علماً بأن الحضارة العربية الإسلامية، أخذت كل ما يتوافق مع تعاليم الدين القيّم، من تلك الحضارات. هذا، ولمّا رأت الدول التي تعتبر تاريخها امتداداً لتاريخ أمم بحضارات سابقة ـ من دون الإسلام ـ عنفوان الحضارة العربية الإسلامية في كل حقل، وازدهار الشعوب العربية الإسلامية، شعرت بحسد تحوّل عبر الأيام إلى حقد، ابتدأت جذوره منذ «حروب الردّة» في عهد أبي بكر الصدّيق، أول خليفة في الإسلام، عندما كانت دولتيّ الروم والفرس تغذيان ثورة المرتدين في داخل الجزيرة العربية، بقصد القضاء على الإسلام والمسلمين. وما نودّ ذكره بالتحديد هنا، أن الحروب الصليبية أتت في جوهرها تعبيراً عن حقد على الإسلام والمسلمين مع الانتشار العظيم للحضارة العربية في العالم، في وقت كان الاتجاه نحو سحق الإسلام موجوداً منذ حروب الردّة.
وحين يجتمع الحقد مع الطمع لاحتلال بلاد تفيض بالثراء، تكون

الكارثة كبيرة على المحتلّين، لأن المحتلّين هؤلاء سوف تجرّهم أطماعهم للاستئثار بما احتلوه، وسوف تجرّهم أحقادهم لإذلال الشعوب المحتلّة، من طرد، وتشريد، واغتصاب للممتلكات، وحرمان من الكرامة في العيش. وهكذا كان الاحتلال الصليبي الذي شتّت الناس والبلاد، وحرمهم من أماكنهم المقدسة في القدس، وعبث بها، وأفسد بكل ما للكلمة من معنى حتى حرّر البطل صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس، فأعاد للمسلمين مهابتهم الروحية بالأعمال الآتية: «إسقاط الصليب عن قبة مسجد الصخرة، والأمر بتطهير المسجد الأقصى، والأمر بعمارته، ووضع منبر نور الدين رحمه الله فيه ورفع الرخام عن الصخرة... إظهار المحراب، وهدم الجدار الذي بناه الداوية أمامه، وهدم كل ما بناه الصليبيون بين السواري، وفرش المسجد بالبسط... كما كسا محراب المسجد الأقصى بالرخام، وكتب عليه بالفصوص المذهّبة (بسم الله الرحمٰن الرحيم، أمر بتجديد هذا المحراب المقدّس وعمارة المسجد الأقصى، الذي هو على التقوى مؤسَّس، عبد الله ووليّه، يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، عندما فتحه الله على يديه في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وهو يسأل الله إيزاعه شكر هذه النعمة، وإجزال حظّه من المغفرة والرحمة»[1]. وذلك يعني أن صلاح الدين الأيوبي أعاد للإسلام عزّه ومجده في المدينة التي أسرى الرسول محمد ﷺ من المسجد

---

(١) شفيق جاسر أحمد محمود، **القدس تحت الحكم الصليبي ودور صلاح الدين في تحريرها** (المدينة المنوّرة: مكتبة الدار، ١٩٨٩)، ص ٧٣ ـ ٧٤. راجع أيضاً سيدة إسماعيل كاشف، **صلاح الدين الأيوبي** (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٦)، ص ٨٨ ـ ٨٩.

الحرام إلى المسجد الأقصى، الواقع فيها. وبإعادته لمجده، عاد التوحيد، وتثبّت الدين القيّم هناك، بعد انقطاع. وكل ذلك يبيّن أن صلاح الدين أعاد للتاريخ الإسلامي، بعون الله تعالى، مسيرته نحو الأمام بعد حدوث تقطّع واضطراب في تلك المسيرة، وعمله هذا هزّ الصليبيين هزّاً. صحيح أنهم استرجعوا القدس مرتين بعد سقوطها بيد صلاح الدين بعد وفاته، إلا أن ذلك كان أمراً عابراً، لا يشبّه باحتلال تلك المدينة المقدسة لمدة ثمانية وثمانين عاماً قبل سقوطها بيد صلاح الدين الأيوبي. وصحيح أن خطر الصليبيين بقي قائماً بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي، لحين زمن الظاهر بيبرس، إلاّ أن ما أُنجِز زمن نور الدين زنكي، ثم صلاح الدين الأيوبي كان بمثابة إزاحة الأمر الأكثر صعوبة في مهمة التحرير اتباعاً لقاعدة صلبة، وأساس متين ـ لو انهار جزء منه ـ يمكن أن يبنى بسرعة من قبل شخص قوي مثل بيبرس. ولا بدّ وأن الصليبيين كانوا يدركون أنه بعد القواعد البنائية العظيمة التي تمّت في عصر نور الدين، وصلاح الدين، فمهما فعلوا، فسوف يأتي وقت يجبرون فيه على التخلّي عن كل ما كان بأيديهم من أراض مغتصبة، ولن تنفع حينها الإمدادات، لأن لكل شيء بداية ونهاية، ويبدو لنا أنه بإدراك تلك الحقيقة من جانب الصليبيين، وإدراكهم أن الزمن لا يسير بتاتاً لصالحهم، مهما فعلوا، اتّجه عالمهم لمؤازرة التتار، علّهم ينجزوا ما عجزوا هم (أي الصليبيين) عن إنجازه، لمّا انقضّ عليهم المسلمون بقوة، أيام نور الدين وصلاح الدين، مع فترة تأسيسيّة هامة أيام والد نور الدين، عماد الدين.

وفي إشارة عن الصلة بين التتار والصليبيين ورد ما يلي في كتاب «محاضرات في التاريخ الإسلامي» لأمين القضاة ومحمد عوض الهزايمة: «إن غزو المسلمين في الشام اتخذ طابعاً صليبياً، ذلك

أن زوجة هولاكو وأمّه كانتا مسيحيتين على المذهب النسطوري، الأمر الذي جعل هولاكو يعطف على المسيحيين بقدر ما قسا على المسلمين في الشرق الأدنى، وفي الوقت نفسه وجدت بعض القوى الصليبية في الشرق الأدنى وفي الغرب الأوروبي فرصة طيبة في إمكان تحويل التتار إلى المسيحية، فاتصلوا بهم واستثاروهم ضد المسلمين. وهناك في المراجع الصليبية المعاصرة ما يثبت أن ملك أرمينيا الصغرى المسيحي اتصل بهولاكو ورسم معه خطة غزو بلاد الشام وانتزاع بيت المقدس ليتسلّمها المسيحيون»[1]. إن ما تقدّم يُظهر الجامع بين التتار والصليبيين من الجانب الروحي، فبما أن زوجة هولاكو ووالدته كانتا تدينان بالمذهب النسطوري المسيحي، فمن المتوقع أن يكون هولاكو عطوفاً على الصليبيين، ثم بالعكس من ذلك، قاسياً على المسلمين، وهذا أمر في صالح الصليبيين بكل تأكيد. هذا ويبدو أن تعاطف هولاكو مع الصليبيين انعكس على كثيرين ممن ينضمون تحت لوائه، الأمر الذي دعا بعض الصليبيين شرقاً وغرباً للاعتقاد بإمكانية تحويل المغول إلى المسيحية، وعليه، استثاروهم ضد المسلمين. مما يعني أنه لمّا رأى الصليبيون في الشرق وفي الغرب نجمهم في أفول، اعتقدوا أن في إثارة التتار خيراً لهم. فلو دخل التتار دينهم مع تعاطفهم معهم، فمعنى ذلك بحساباتهم كما نعتقد، أن الغالبية العظمى بعد الغزو التتري سوف تصبح مسيحية، ولو حصل ذلك، فمعناه العودة إلى الوراء، إلى ما قبل عصر عماد الدين زنكي. بل وأسوأ بالنسبة للجانب الإسلامي. وبنظرة الصليبيين، لو صحّ ذلك، فمعناه هيمنة

---

(١) أمين القضاة ومحمد عوض الهزايمة، محاضرات في التاريخ الإسلامي (عمان: دار عمان، ١٩٩٢)، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

صليبية جديدة مستشرية في الأراضي العربية الإسلامية قد يصعب خروج الإسلام والمسلمين منها بتقديرهم. ومن تلك الزاوية، نستطيع أن ندرك تماماً لِمَ اتصل ملك أرمينيا الصغرى المسيحي بهولاكو لرسم خطة غزو بلاد الشام معه، إضافة لانتزاع القدس بهدف تسليمها للصليبيين.. باللغة السياسية والعسكرية، فذاك يعني أن تدبير الغزو التتاري على البلاد العربية الإسلامية جاء من جانب المسيحيين، وأن الهدف في جوهره كان انتزاع بيت المقدس من المسلمين أولاً لتسليمها للمسيحيين، على أساس أن القدس كانت رمزاً لقوة الصليبيين وقت احتلالها، ولما سقطت، اهتزّ الصليبيون، وارتجّ ملكهم بقوة، فأرادوا العودة إلى ما قبل استرجاعها من صلاح الدين، لتعود أحوالهم بشكل أفضل حتى ممّا كانت عليه قبل الصحوة العربية الإسلامية الصحيحة. وهذا كله يبيّن أن المعركة كانت ما تزال قائمة ضد الإسلام والمسلمين من الصليبيين والمشركين، وأحد محاورها الهامة بيت المقدس التي في استعادتها عاد للإسلام عزّه ومجده. مرة أخرى، نرى تطويقاً للدين القيّم وأهله من قِبل كلّ من أرادوا تهديمه بكل رموزه، ومراكزه المقدسة، ومعانيه الروحية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية، ونرى لزوماً، عند هذه النقطة، أن نسترسل بعض الشيء في هذا الموضوع عبر تقديم نظرة تحليلية لما فعله التتار في مركز الخلافة الإسلامية، بغداد.

٢ ـ المضامين وراء أعمال هولاكو ببغداد

أ ـ ذبح الناس

إضافة لما ذكرناه سابقاً عن أعمال التتار التخريبية، فعند

دخولهم إلى بغداد عام (٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م) عامل هولاكو الخليفة المستعصم بالله، بأسلوب متجرّد من كل معاني الإنسانية، وأصول التعامل الحضاري والقيم، فأخذوا منه كل أمواله ونفائسه أولاً، وكأنها حق لهم، وذلك كخطوة أولى في إذلاله، وتجريده من مركزه خطوة خطوة بعد استنزافه، إذ أن خطوتهم الثانية معه، تمثّلت في توجيه أمر لسكان بغداد لوضع أسلحتهم، ثم الخروج من المدينة بحجّة إجراء تعداد لهم. وطبعاً كان ذلك مقدّمة لمذبحة كبرى للناس. ومن المعروف أن طلب التجريد من الأسلحة في اللغة الحربية ـ في حالة وجود عدوّ شرس بلا إنسانية ـ هو مقدمة لانقضاضة وحشية لقتل الأبرياء، وذاك ما فعله هولاكو وأصحابه إذ ما كاد الخليفة ينفّذ مطلبهم، وما كاد الناس يلبّون نداء الخليفة حتى أمر هولاكو جنده بذبح الناس بطريقة مشينة مليئة بالحقد على الإسلام والمسلمين، وقد أمضى هؤلاء مدة أربعين يوماً في قتل الناس العزّل. «وكان القتلى في الطرقات كأنها التلال، ولمّا نودي بالأمان خرج من تحت الأرض من اختفوا في المطامير والمقابر ومن لجأ إلى الآبار والحشائش كأنهم الموتى وقد نبشت قبورهم، وقد أنكر بعضهم البعض، فلم يعرف الأب ابنه ولا الأخ أخاه، ثم انتشر الوباء فحصدهم بمنجله حصداً ذريعاً، وفسد الهواء، وعمّ البلاء»[1]. إذن، يرى القارىء بوضوح ما يفعله الحقد ضد الإسلام والمسلمين، تلك صورة مخيفة مليئة بالقسوة التي تهلع القلوب، حتى الآن، لخروجها عن كل ميزان إنساني.. صورة مجزرة طويلة الأمد، ومحاولات هروب وتخفٍّ، ثم خروج من أماكن التخبئة في أشد حالات الإذلال، ثم هجوم الأوبئة على من بقوا

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

أحياءً لحصدهم، والهدف من ذلك البدء بأهم مدينة وقتئذٍ سياسياً، وهي بغداد، مركز الخلافة، إذ لمّا يبدأ بالمركز، ويذبح الناس هناك، فذلك إنذار للعرب والمسلمين في كل أقطارهم بقدوم عهد دموي لا حيلة لهم فيه، وخصوصاً مع قتل الخليفة.

ب ـ قتل العلماء كرمز لاستئصال العلم دعامة الحضارة

هذا وفي أثناء مذبحة التتار للناس في بغداد، فقد ركّزوا على قتل رجال العلم، «وقتلوا أئمة المساجد وحملة القرآن، وتعطّلت المساجد والمدارس والربط، وأصبحت المدينة قاعاً صفصفاً ليس بها إلاّ فئة قليلة مشردة الأذهان»[1]. وطبعاً، تلك ظاهرة خطيرة تستدعي التأمل، فالعمل ليس مجرد عمل خبط عشوائي نابع عن همجية التتار، كأقوام غير متحضرة، أتت على شكل موجات للعبث، كما يبيّن معظم المؤرخين، بل هو باعتقادنا سياسة مدبّرة ضد الكيان والوجود الإسلامي كله في عاصمة العلم والسؤدد والفخار، بغداد، مركز الخلافة. وكما نعرف، فإن العلم هو أساس جوهري للحضارة، والدين الإسلامي يدعو إلى التفكير، والعلم، والاكتشاف، وأكبر دليل على ذلك قوله تعالى:

﴿قُل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [سورة الزمر: الآية ٩].

﴿يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات﴾ [سورة المجادلة: الآية ١١].

تبيّن الآية «٩» من «سورة الزمر» بأن العلم «الحقّ هو المعرفة، هو إدراك الحق، هو تفتّح البصيرة، هو الاتصال بالحقائق الثابتة في

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

هذا الوجود»[1]. في حين أن الآية «١١» من «سورة المجادلة» تؤكد بأن العلم «الذي يُهذّب القلب فيتسع ويطيع، يؤدّي إلى الرفعة عند الله درجات»[2]. إذن العلم هو أساس تهذيب النفس وصقل الشخصية البشرية في الإسلام، والإنسان المهذّب في نفسه، القويم في شخصيته هو الإنسان المدرك لأسباب وجوده، العارف لمعنى كيانه ومصيره، وبالتالي فهو الشخص القادر على تحمل أعباء حياة الأمة أولاً، وبالتالي أعباء الحياة البشرية، وهو الذي يدرك بأن الحياة ليست للهو والإفساد، بل هي للجهاد، والنهوض بمسؤولية التكليف القرآنية التي تعني العبادة، والعمل الدنيوي الفعّال المنتج في بناء المجتمع، ورقيّه، وتقدّمه. إذن، فالعلم هو الطريق للبناء الحضاري في حياة الأمم.

إن العلم هو عماد التكوين الفكري في الأمة، وبه تخرج الأمة الواحدة من بوتقة المحاكاة والتقليد إلى بوتقة الإبداع.. وهكذا كان الحال مع المسلمين، أمة خرجت للكفاح في سبيل نشر الدين الإسلامي كرسالة كونية.. غزوة تلو غزوة، وفتح إثر فتح في المشرق والمغرب، وتأثّر بحضارات عظيمة، واستيعاب لما صلح منها حتى قامت لديها حضارة مزجت ما بين الروح والمادة، فأخذت وأعطت في بوتقة فكر جوهري في الحياة، وهو الأخذ والعطاء مبيّن كالآتي: «ليس في الوجود شيء لا يأخذ ولا يعطي... ليس في الوجود شيء يعطي ولا يأخذ!... كل شيء في هذا الكون يعتمد على كل شيء في هذا الكون: بنيان

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد ٥، (القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٩)، ص ٣٠٤٢.

(٢) المصدر نفسه، مجلد ٦، ص ٣٥١٢.

مرصوص يشدّ بعضه بعضاً، وكل خلق بنيان، ولا بنيان بغير وحدة شاملة، ولا وحدة شاملة بغير تضامن بين الحجر والحجر، وبين الجزء والجزء!»[1]. وبهذا المنظار، فحضارة المسلمين، التي كانت بغداد مركزها الجوهري، في الأخذ والعطاء، والاستمرارية لخطّ حضاري موحّد خلال التاريخ، توّج بالإسلام، جاء التتار ليخرجوا المسلمين بعنف من ذلك الخطّ بتهديم ما بنوه من علوم قدر المستطاع.. أرادوا بذلك توجيه طعنة مباشرة إلى قلب دار الخلافة لتعطيل كل الحركة العلمية تعطيلاً، ولفرض العزلة والجمود على ما تبقى من مراكز علم في البلاد العربية الإسلامية. فقوة الأمم بالعلم الذي هو عجلة الدفاع عن كيان ووجود الأمة، وجمع شتاتها، لو حصل، لا يتمّ إلا بالعلم. ومن هنا، فضربة التتار لمحق العلم والعلماء، كانت تهدف للقضاء على هوية الأمة الإسلامية لتحويل المسار التاريخي كله ضدّها. ومن تلك الزاوية أيضاً، نرى أن هجمة التتار على العلم والعلماء في بغداد المتمثلة في إهلاك أكبر عدد من رجال العلم ببغداد، وإتلاف أكبر عدد من الكتب القيّمة في مكتبات تلك المدينة، كانت خطيرة للغاية. ومن هنا، لو أحضرنا الملك الظاهر بيبرس، إلى الصورة، نرى أن إنجازاته الهائلة، في الجانب الثقافي في مصر، جاءت للتعويض، برأينا، عمّا حصل في بغداد، وتذكير التتار بأنهم إن هدّموا أهم مركز من مراكز العلم بوحشية وهمجية، فالإسلام بألف خير، ويمكن بناء صرح آخر للعلم ليأخذ الصدارة في العالم العربي الإسلامي، في القاهرة، التي كانت أصلاً مركزاً حضارياً هاماً في

---

(١) توفيق الحكيم، تحت شمس الفكر (بيروت: دار الكتاب اللبناني، لا. ت.)، ص ٧٥.

تاريخ الإسلام وقبله. هذا، ومع اهتمام الظاهر بيبرس بوضع مصر في مركز الصدارة علمياً وثقافياً ليؤكد للتتار، بل وللصليبيين، بأن المسيرة الحضارية الإسلامية سوف تبقى سائرة مهما حصل، فقد نقل الخلافة أيضاً إلى القاهرة. والخلافة، على الرغم من ضعفها، فهي رمز للوحدة الإسلامية.. رمز للوحدة في العقيدة واللغة. هذا مع العلم بأن العقيدة إضافة إلى اللغة «قوتان بالغتا الأثر في توحيد من يشتركون فيهما، وفي تعاونهم وتآلفهم»[١]. هذا، وبالدين الإسلامي، أدرك المسلمون أنهم أخوة «تربط بينهم مبادىء الحرية والإخاء والمساواة المقررة في الإسلام، ويقوم الحكم بينهم على أساس من العدل والتقوى...»[٢]. إن النقطة الهامة التي نودّ إبرازها هنا، أنه بنقل الملك الظاهر بيبرس الخلافة إلى مصر، أراد التأكيد على أن عوامل التفرقة والضعف التي بذرها الصليبيون في البلاد العربية الإسلامية، والأعمال الشائنة التي فعلها التتار ببغداد، وغيرها، سوف تصل إلى نهاية بالنتيجة، وسوف تتراجع كلها أمام قوة الإسلام الممثلة في مصر، بوجود الخلافة برمزها الروحي فيها. ثم وجود الملك الظاهر بيبرس الذي جعل موضوع تثبيت الوحدة الإسلامية هدفه الأساسي، لكي تسترجع الأمة الإسلامية شخصيتها المتميزة في ظل ركب حضاري، كيانه العقيدة والعلم.. العلم الذي عمل التتار على تقويضه كخطوة جوهرية لتهديم العقيدة الإسلامية. هذا وإن إبراز العلاقة الوثيقة بين العلم والعقيدة يتمثل في الفقرة التالية المستقاة من كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام أبي

---

(١) محمد حسين هيكل، **الفاروق عمر** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٠)، ص ٣٠٨.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ٣١١.

حامد الغزالي: «وقال بعضهم: العلماء سرج الأزمنة، كل واحد مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره. وقال الحسن رحمه الله: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم: أي أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حدّ البهيمية إلى حدّ الإنسانية. وقال يحيى بن معاذ: العلماء أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة... وقال معاذ بن جبل: تعلّموا العلم فإن تعلّمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد... (إن) العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف... به يُطاع الله عزّ وجلّ، وبه يُعبد، وبه يُوحّد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء...»[1]. إن تلك الفقرة التي تكشف عن زوايا هامة لعلاقة العلم بالدين، تعطي العلماء منزلة عظيمة فتصفهم كسرج للأزمنة بحيث يكون كل واحد منهم مصباحاً في زمانه لإضاءة الناس بعلمه، وهذا ما يفسر لنا سبب انقضاض هولاكو الشرس على العلماء في بغداد، ومن قبله الصليبيين في القدس، بالمذبحة الكبرى التي ذهب ضحيتها سبعون ألف مسلم أو أكثر، بعلمائهم، وفقهائهم ومفكّريهم في المسجد الأقصى ـ يريدون إطفاء نور العلم في الأمة العربية الإسلامية بقتل رجال العلم منهم، وهذا ما أدركه الملك الظاهر بيبرس تماماً، فشجع العلماء والعلم في مصر، حتى لا تصاب البلاد بالجمود، وحتى يبقى الناس في مكانة عليا. إذ،

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، مجلد ١، (بيروت: دار المعرفة، لا. ت.)، ص ١١.

كما تظهر الفقرة المبيّنة أعلاه، أن التعليم يخرج الناس من بوتقة البهيمية إلى حدّ الإنسانية، وهنا ينضبط الإنسان، ويتصرّف في بوتقة من التوازن بين العقل والعاطفة، دون إفساح المجال للعواطف للتغلّب على الإنسان بالغرائز والشهوات التي تحول دون إنجاز العمل المثمر الفعّال اللازم للارتقاء بالمجتمع. وهنا، نستطيع أن نرى سبباً آخر لتصويب همّ هولاكو على قتل العلماء، فهو لا يريد قوماً يعون المسؤولية، بل يريد نشر البهيمية في العالم العربي الإسلامي، حتى وإن كفّ عن مذابحه للمسلمين، لا يتمكن الآخرون منهم من الوقوف للدفاع عن الكيان الإسلامي. وممّا لا ريب فيه أن الملك الظاهر بيبرس فهم مقاصد التتار جيداً، فركّز على مسألة العلم والتقويم الأخلاقي في الإطار الروحي، فكأنّه كان يستعيض عن أهدافهم ببغداد، بمحقها في مصر، بل وتثبيت كل ما أراد التتار محقه. وبالنتيجة، فسواء الصليبيين أو التتار، فقد أرادوا وضع المسلمين في عصور الجهل والتخلّف، لأن العلم كما ورد في الفقرة المذكورة أعلاه هو «حياة القلوب من العمى»؛ بمعنى أن العلم، الذي يدعو إليه الدين القيم، هو الباعث لنور البصيرة في القلوب، والفلاح في العمل مرتبط دوماً بنور البصيرة، ولما تكون البصيرة قوية تشحذ الأبصار، وتنمّي التفكير فتصبح قدرة الإنسان لرؤية الأمور في إطارها الصحيح كبيرة. ومن هنا، يكافح من أجل فعل كل ما يتنافى مع سنن الحياة القائمة على الحق والعدل، فيجاهد ضد الظلم والطغيان والتيه. وهذا هو معنى «العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم». ومن المؤكد أن الملك الظاهر بيبرس أدرك أهمية العلم في الجهاد ضد الظلم والبغي والتيه والطغيان، فشجّع العلم والعلماء. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بوادر نبوغ الملك الظاهر بيبرس المصطحب

بشجاعة وحرص شديد على المصلحة العامة، والاستقامة، ظهرت منذ أيام إقامته في دمشق، إذ كان يتصدّى للانحراف في السلوك والتصرف، منذ ذلك الوقت، وتأجج هذا في نفسه، لما ارتقى إلى المناصب العليا.. ومضى في جهاد عظيم ضد الصليبيين والتتار، ليبقى الإسلام عالياً في ظل التوحيد، جوهر الدين القيّم.. هذا مع العلم بأن الذي يؤمن بالتوحيد، ويعمل على تدعيمه يضع مسألة وحدة الصف العربي الإسلامي، كهدف أساسي له. والملك الظاهر بيبرس جاهد بكل وسيلة من أجل إرساء الوحدة، وقد ضمّت الجبهة الداخلية التي انطلق منها لمجابهة أعداء الإسلام: مصر وبلاد الشام، إضافة إلى شبه الجزيرة العربية ثم أرمينيا والسودان وليبيا. وتلك الرقعة الكبيرة زوّدته بالفرصة لحرية الحركة إضافة إلى تجهيز الجيوش[1].

والجدير بالملاحظة هنا، أنه في خضم اهتمام الملك الظاهر بيبرس بموضوع الوحدة، فقد كان يفعل ذلك في ظل توطيد الإسلام كعقيدة وتاريخ، وحضارة، ويتجلى أحد مظاهر ذلك في اهتمامه في بناء المساجد وإصلاح الأماكن المقدسة. فمثلاً، بنى الجامع الظاهري الذي اكتمل بناؤه في القاهرة عام (١٢٦٥ م)، وهو كما يُوصف «آية في جمال فنّ العمارة بقبّته ومقصورته الأنيقة»[2]. وخارج القاهرة، بنى في بلاد مصر مجموعة من الجوامع، ثم اتجه نحو الأماكن المقدسة، فأصلح بناء الحرم

---

(١) الأشتر...، المصدر السابق، ص ٩١.
(٢) المصدر نفسه، ص ٦٠.

النبوي في المدينة وزيّنه بالزخارف والذهب... وأصلح قبة الصخرة في بيت المقدس»[1].

ج ـ بعث في الجانب الديني في العصر المملوكي

بناء على ما تقدم نرى أن إنجازات الملك الظاهر بيبرس في المجال الروحي هي كالآتي: جعل مصر مركزاً للخلافة، حتى تبقى رعاية الأماكن المقدّسة في كل من الحجاز، والقدس تحت سلطة الخليفة اسمياً، وبيده، كحاكم قوي، فعلياً، وتلك تعني بالمفهوم السياسي، أن قوة الإسلام المتجمّعة في مصر، كفيلة بالامتداد لصون المقدسات الدينية في الحجاز والقدس. وبذلك تكون مصر هي مقرّ السلطة المركزية التي ترعى الأماكن المقدسة حقّ الرعاية، لأن تلك الأماكن تمثّل الجامع الروحي بين المسلمين في ظلّ التوحيد، الذي أبرز تماماً في معجزة «الإسراء والمعراج». والنقطة الهامة هنا أنه مع كون مصر مركزاً للخلافة بحكم الظروف، التي تحدثنا عنها في عصر الملك الظاهر بيبرس، إلاّ أن عنايته البالغة بالأماكن المقدّسة موجودة أيضاً، وتدخل تحت إدارة السلطة المركزية في كل معنى الكلمة.

(أ) القــدس

فلو أخذنا القدس على انفراد، فقد كان لها حظ من الرعاية الوافرة في العصر المملوكي، بما في ذلك أيام الملك الظاهر بيبرس كما هو مذكور أعلاه. هذا، وقد عُثِر منذ فترة على وثائق الحرم الشريف، التي تبرز تلك الحقيقة، وقد نشرت دراسات عن تلك الوثائق، منها مقالة بعنوان «الحياة في القدس في عهد

---

(١) المصدر نفسه، ص ٦١.

المماليك كما تصوّرها وثائق الحرم الشريف» بقلم ليندا نورثروب، وذلك في كتاب «الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى». وتعتمد الكاتبة لتلك المقالة على دراسة لهدى لطفي، بصدد الوثائق تلك، وتحدد أهمية الوثائق من الزوايا الآتية:

(١) الوثائق الإسلامية (السجلات الرسمية...).

(٢) القضاء الإسلامي.

(٣) تاريخ القدس الاجتماعي والاقتصادي في العصور الوسطى... (والسجلّات) تحتوي على عيّنات واسعة التنوع من الوثائق القضائية مثل المراسيم، القصص، المطالعات، حصر الإرث، الشهادات القضائية التي تتضمن إقرارات أو إشهادات أو الوثائق التي تبدأ بتعبير «يقول»، وشهادات ومحاضر، وعقود، بما في ذلك سندات الشراء، وعقود الإيجار، وتمليكات، وعقود زواج، وزواج بالوكالة، تحويلات قانونية على هيئة وصايا، ووقفيات، وودائع، اجتهادات قضائية (فتاوى ومكاتبات)، بيانات مالية مثل إيصالات، حوالات، ونفقات، وبيانات الدين، دفاتر (جردات، وحسابات بالرموز، وغيرها)...[1]. ومن هنا، تمضي الكاتبة للتحدث عن غنى تلك الوثائق في مجال دراسة «الممارسات القضائية الإسلامية الفعلية». ولكن، كما يبدو لنا، لا تثبت ذلك بالتحليل الفعّال إجمالاً، بل تعتمد على قول هدى لطفي «إذا كان علينا أن نفهم الوثائق القضائية فهماً صحيحاً، فإن أول ما علينا أن نفعله، بعد قراءة أي نصّ من النصوص قراءة سليمة، فهم دقائقها

---

(١) هادية دجاني شكيل وبرهان الدجاني، **الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٤)، ص ٤٣.

القانونية؛ فإذا فعلنا ذلك زاد فهمنا للطريقة التي كانت مختلف المؤسسات تعمل بها في حياة أفراد المجتمع الإسلامي اليومية»[1] ثم تضيف ليندا القول: «وعلى الرغم من أن كلاًّ من ليتل ولطفي عني في الدرجة الأولى بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي، لا بعلم الوثائق والممارسات القضائية، فإنهما سعيا لفهم معطياتها في ضوء السياق الوثائقي والقضائي للوثائق التي كانا يدرسانها. . .»[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه بالرغم من وجود بعض الغموض في مناحي من المادة، التي أوردتها ليندا حتى الآن، إلا أن الوثائق، ضمن فهمنا للأمور، تغطي أولاً الجانب الرسمي الذي يشمل السياسة ثم الجانب القضائي الإسلامي، فتاريخ القدس الاجتماعي والاقتصادي، إضافة إلى بعض زوايا الناحية الثقافية، وأمور شرعية مما تقوم عليه الحياة الاجتماعية والحياة الفردية. وطبعاً، تلك أمور تشكل بمجموعها كل الحركة «الحضارية» في القدس بجميع قواعدها، وأسسها، ومقوماتها، ومؤسساتها بنظرنا. ولكن حتى تظهر الحركة الحضارية كمصب لفروع عديدة في بوتقة واحدة، كان من الأجدى عدم الاكتفاء بسرد أهمية الوثائق إجمالاً، بأسلوب وصفي، بل التقدّم نحو تحليل لما ورد، لأن الروابط بين كل ما ذكر بإطار المنطق وأدواته لا يظهر جلياً إلا في التحليل العلمي الدقيق ذاك. ولا يكفي لكاتبة المقال الاستعانة بأقوال مكتنفة هنا بالغموض نوعاً ما، من باحثة أخرى، هدى لطفي. فالأخرى تكتفي بإثارة مسألة فهم الدقائق القانونية في الوثائق القضائية في حدود المادة المبرزة أمامنا، مبينة بأن ذلك يقود لفهم

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٣٨.

الأسلوب العلمي للمؤسسات «في حياة أفراد المجتمع الإسلامي اليومية» دون إيضاحات لازمة. ثم تتدخّل ليندا من ثم للقول إنه انطلاقاً من عناية لطفي وليتل «بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي»، لا «بعلم الوثائق والممارسات القضائية». بالدرجة الأولى «فإنهما سعتا لفهم معطياتها في ضوء السياق الوثائقي والقضائي للوثائق التي كانا يدرسانها». وتجدر الإشارة هنا إلى أن التوصل لفهم أسلوب عمل المؤسسات في حياة أفراد المجتمع الإسلامي اليومية، لا ينفصل ـ كما يوحي بحث الكاتبة ـ عن التركيز بالدرجة الأولى على التاريخ الاجتماعي والاقتصادي. إذ ما معنى التاريخ؟ التاريخ علم يضم كل ما يجري من أحداث في حياة البشر من جميع زواياها السياسية، الروحية، الاجتماعية (وتشمل المعاملات والعلاقات والتنظيم للعلاقات)، الأخلاقية، والثقافية، والاقتصادية. أي أنه علم يدوّن كل ما يجري في المجتمع. هذا وبما أن المجتمع مكوّن من أفراد، فما يجري، وما ينجز من أعمال من قبل الأفراد في حياة المجتمع اليومية، يدخل بالواقع في تركيبة المجتمع، وأسلوب مساره الكليّ. وطالما أن الأمر كذلك، فهذا، يدخل دون أدنى ريب، في التاريخ الاجتماعي. وكله لو تمّت دراسته في البوتقة الشمولية، لا بوتقة التجزئة إجمالاً، فعندها يحصل القارىء على معلومات هامة، بصدد زوايا هامة، عن وضع القدس الدقيق بإيجابياته وسلبياته زمن المماليك، من وثائق الحرم الشريف. هذا، ومع أن الكاتبة في أجزاء أُخر من مقالتها تناولت «الوضع المديني»، «الوضع السكاني»، «الحياة السياسية والإدارية»، «الحياة الدينية والفكرية»، «الحياة الاقتصادية والمادية»، «الحياة الاجتماعية والمنزلية» بعناوينها، إلا أن المادة المقدّمة أتت في إطار وصفي سردي إجمالاً، تبدو فيه القدس في

معظم الأوقات، وكأنها بلا ارتباط وثيق مع السلطة المركزية، وكأنها منعزلة إجمالاً. ومع أن الكاتبة حاولت إيجاد مبررات لذلك، إلا أن تلك المبررات قد لا تفي بالمطلوب في البوتقة الجوهرية. هذا، وطالما أن الكاتبة وضعت عنواناً أساسياً داخل مقالتها «القدس في العهد المملوكي»، فالقارىء ينتظر أن يتم بحث الجوانب المتطرّق إليها، لا من زاوية محدودة إجمالاً، بل من زاوية شمولية واسعة، تظهر فيها العلائق بين السلطة المركزية والقدس، لأن ذلك يبين الدور المملوكي الهام بصدد الدولة العربية الإسلامية، ومنه دور الملك الظاهر بيبرس بإطاره العميق الفعّال.

هذا، وطالما أن القدس تشكّل موضوعاً هاماً في التاريخ الإسلامي كله، وطالما أن لها أهمية أيضاً خاصة في تاريخ عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين، ثم صلاح الدين، التي استُرجِعت على أيامه، نرى ضرورة للتركيز على القسم المتعلّق بالحياة الدينية والفكرية في مقالة ليندا، بعض الشيء، على أن نتابع ذلك في «خاتمة» دراستنا الحالية. ومن جملة ما تقوله في البداية لشرح ذلك الجانب: «وفي وثائق الحرم شواهد تبيّن «اهتمام سلطة المماليك في القاهرة على مدى نحو مائتي عام بتأمين الدعم المالي لصيانة المزارات والأنشطة المتصلة بها»[١]. تلك نقطة مهمة جداً، وضعت دون تعقيب!! فهي أولاً تبيّن مدى اهتمام السلطة المركزية في القاهرة بمدينة القدس، والدليل على ذلك الدعم المالي المقدّم لصيانة المزارات والأنشطة المتصلة بها. هذا وإن البذل المالي من أجل صيانة المزارات والأنشطة المتعلقة بها، تعطي صورة واضحة عن جوانب هامة في الإطار الروحي، منها ما قد يبيّن ما أدخل من

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥٦.

آراء وأفكار ونشاطات على الإسلام من جانب الطرق الصوفية. إذن، نحن هنا أمام مواضيع هامة عن الحالة الدينية. هذا، وبعد ذلك، وفي تطرّق للظاهر بيبرس بالتحديد الآن، تقول الكاتبة استناداً لوثائق الحرم الشريف «وأقدم الوثائق تلك التي أصدرها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م، تأمر ولاة وموظفي سوريا أن تظلّ ناحية العوجا في الغور وقفاً للقدس وأن يكرّس الدخل كله لصلاحها»[١]. لمرة أخرى، أتت عبارة في غاية الأهمية في المقالة المذكورة أعلاه، دون تعليق عليها. إن تلك العبارة تظهر اهتمام بيبرس الكبير بمدينة القدس، وبما أن القدس أقرب إلى ولاة سوريا منه، فوجّه الأمر لهم لكي تبقى العوجا في الغور وقفاً لمدينة القدس، بحيث يكرّس كل الدخل لصالحها (وسنشرح المزيد في الخاتمة). ولكن ما نقوله الآن، هو أن ذلك يعني بأن بيبرس كان حريصاً على الحفاظ على مكانة القدس الدينية الإسلامية، حتى أنه خصّص لها ريعاً ضخماً مستمراً في حياته، فتبقى القدس قوية روحياً، بل وسياسياً. وهذا كله هام للغاية، لأنه يعني أن فترة حكم الملك الظاهر بيبرس، كانت امتداداً لفترة صلاح الدين الذي أعاد القدس إلى إسلاميتها كما ذكرنا سابقاً، وذلك لتأكيد أن ما حققه صلاح الدين بعد فتح القدس، بقي كما هو، وبقيت المدينة مدينة هامة للغاية في عهده، لن ينال منها الطامعون شيئاً مهما بغوا. إذن، فالوثائق التي أصدرها الملك الظاهر بيبرس تلقي أضواء واسعة على السياسة في عصره، مع اهتماماته الروحية، وهنا فقط، نستطيع أن نرى المسار التاريخي لمدينة القدس في عهد الملك الظاهر بيبرس في بوتقته الشمولية

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥٦.

بوجه عام، وهنا تخرج المدينة من الإطار المحدود إجمالاً، كما يتجسّد في مقالة ليندا، بنظرنا، إلى البوتقة الواسعة. وهنا أيضاً تظهر زاوية من زوايا أهمية وثائق الحرم الشريف بوضوح. والمهم في الأمر كله، أنه لو حدث اضطراب في المسار التاريخي للقدس بعد وفاة صلاح الدين، لاحتلالها مرتين، ثم إعادتها للمسلمين، فإن التثبيت في ذلك المسار عاد في عهد المماليك، وخصوصاً أيام الملك الظاهر بيبرس. وبذلك، فالملك الظاهر بيبرس يشكل حلقة في سلسلة أبطال بنوا قواعد لاستعادة القدس: عماد الدين زنكي، ونور الدين زنكي، ثم بطل فتحها وإعادتها إلى صبغتها الإسلامية، وهو صلاح الدين الأيوبي، ثم البطل الملك الظاهر بيبرس الذي اهتم بها كثيراً، وحافظ على مكانتها القوية إسلامياً. هذا وسوف نخصص جزءاً كبيراً من «الخاتمة»، لاستفاضة أكبر في مقالة الكاتبة ليندا للأهمية.

٣ ـ الملك الظاهر بيبرس كبطل منقذ في الفكر التاريخي والأدب الشعبي

من منطلق ما ذكر أعلاه، فإن الملك الظاهر بيبرس، الذي يشكّل عهده حلقة تاريخية هامة، فهو فعلاً في عِداد أبطال التاريخ الإسلامي. ولا عجب في ذلك، فهو لم يقف عند حدود الاهتمام البالغ بالأماكن المقدسة كسياسي محنّك، وشخص مؤمن، بل أمضى وقتاً من حياته في مجابهة الصليبيين، مع تحقيق انتصارات مشهودة إجمالاً. وبالوقت نفسه، حارب تحت قيادة المظفّر قطز في «معركة عين جالوت» التي وقعت عام (١٢٦٠ م). هذا، مع العلم بأن عين جالوت تقع قرب مدينة نابلس في فلسطين. وكان،

للملك الظاهر بيبرس، كما يروى، «اليد الطولى في إحراز النصر (فيها)، فهو الذي قاد طليعة الجيش، وهو الذي اشتبك في البداية مع جيش المغول الرئيسي وأبدى في المعركة كثيراً من ضروب البطولة والتضحية. وقد أقام في ساحة المعركة نصباً تذكارياً سمّاه «مشهد النصر» وذلك بعد أن أصبح سلطاناً»[1]. وطبعاً، فإن «معركة عين جالوت معركة فاصلة في التاريخ، وحاسمة، إذ لولا نصر المسلمين فيها، لسار المجرى التاريخي في مسار آخر، لا لصالح المسلمين. فالهجمة التترية كانت غير معقولة ولا مقبولة في أي ميزان وشرسة، وخطيرة للغاية، لأنها لو نجحت لأطبق الصليبيون مع التتار على العالم الإسلامي كله. صحيح أن حملة مغولية أخرى حدثت مع مناوشات أخرى ومخاصمة، وصحيح وجود محاولات للتحالف بين المغول والفرنج، إلاّ أن ذلك كله لم يؤثّر جوهرياً على حكم المماليك. والدليل على ذلك وجود نوع من الإحباط في بعض المصادر الغربية بسبب عدم التوصل لتحالف صليبي - مغولي متين قوي لتحقيق أهدافهم. وممّا ذكر عنهم في هذا الصدد من أنه لو تمّ التحالف مع المغول في البوتقة الصحيحة، لبات من المستطاع إطالة الاحتلال الصليبي في المشرق العربي الإسلامي، وإضعاف المماليك أو قهرهم[2]. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه لمّا قام المغول بهجمتهم الشرسة ضد عاصمة الخلافة العباسية، بغداد، تمّ ذلك بحثٍّ من المسيحيين كما ذكرنا سابقاً، ووقتها، كان أمل الصليبيين منصباً على تدعيم وجودهم

---

(١) الأشتر. . . .، المصدر السابق، ص ٢٨.

(٢) بسام العسلي، الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة (بيروت: دار النفائس، ١٩٩٢)، ص ٩٠.

بعد اهتزاز بدأ مع عماد الدين زنكي، وبلغ ذروته زمن صلاح الدين الأيوبي في استرجاع القدس. ولكن كما نعرف، فالتاريخ لا يسير من منطلق قاعدة لا تتغير، بل يخضع للتغييرات مع انطلاقة الزمن.. والتغييرات تتبع التحوّلات في الظروف، والتبدّلات في الأحوال، والتي قد تقع أحياناً فوق الحسابات البشرية. وبهذا، لم تسِرْ الأمور وفق هوى الصليبيين. فالتتار هزموا «بمعركة عين جالوت» الفاصلة في التاريخ، والانقسامات في عالم الغرب المسيحي اشتدت، ومعها خفّ الاهتمام بالصليبيين في المشرق عن السابق نسبياً، وفي خضم كل ذلك استعاد الإسلام مجده بجهود الملك الظاهر بيبرس، والمسلمون قوتهم وشأنهم في عهد ذلك البطل، فبات الصليبيون في المشرق في وضع حسّاس، وبات من المحتم أن نهايتهم قادمة خلال فترة تاريخية قصيرة. إن النقطة الهامة هنا هي أن التطوّر بأن وجود تحالف مغولي صليبي، على أسس قويمة، كان بإمكانه أن يؤدي لإطالة وجود الكيان الصليبي في المشرق، لا يشكل أكثر من رؤية عاطفية لا تتمازج مع المتغيرات والمستجدّات على الساحة في البلاد العربية الإسلامية وقتذاك. فعادة، لما يظهر بطل في الأمة، بعد تمهيد تاريخي لظهوره، يكون وقع ظهوره قوياً في النفوس، وخصوصاً، لما ينجح في توعية المحكومين على واقعهم بأصول وقواعد ووسائل متينة، ويجذبهم نحوه للاستفادة من مواهبهم وقدراتهم في التصدّي للعدوّ الطامع المغتصب من جهة عن طريق الجهاد، وفي البناء الداخلي للدولة من جهة أخرى. وطبعاً، جذب الحاكم للمحكومين، يقوم على قواعد من العدل، والاحترام لحقوقهم في الحرية في الإطار الإسلامي، إضافة إلى المراعاة لإنسانيتهم والحفاظ على كرامتهم. والتاريخ يظهر أن الملك الظاهر بيبرس

تميّـز بكـل ذلـك، ومـن شـدة نجاحـه فـي هـذا المجـال أحبّـه المحكومون كثيراً، بل ومن كثرة تلك المحبّة انبرى القصاص لرواية حكايات شيّقة عنه. وقد أدّى ذلك لكتابة سيرة من حوله «تجعله في مصافّ الأبطال الخالدين»[1]. هذا، وفي دراسة تحليلية عميقة ونقدية لتلك الرواية الشعبية، عن سيرة الملك الظاهر في كتـاب «الصـراع الإسـلامـي الفـرنجـي علـى فلسطيـن فـي القـرون الوسطى»، يذكر الأستاذ برهان الدجاني بأن تلك الرواية تصنّف في الأدب المختـصّ بـالمـلاحـم أو فـي الأدب المختـص بـالأبطـال والبطولة، فأبطالها من فئة الشجعان الذين يقدمون على الموت دون خوف، ويحاربون بغية تحقيق النصر. كما أن مسارحها هي بالواقع ساحات الحرب في البر والبحر معاً. «ومضمونها الأعمال التي تتطلّب الشجاعة والإقدام وسرعة الحركة، وحضور البديهة، وإحكام الضربة، وباختصار، تآلف الملكات الفكرية والجسدية في حركية متكاملة تتوجه كلها في أثنائها، بغير تناقض أو تلكؤ نحو هدف واحد، لتبلغه في ضربة واحدة أو في ضربات متعاقبة، وبذلك فإنها تمثّل جزءاً من الأدب البطولي الشعبي العربي، الذي يضمّ سيراً أخرى مثل سيرة سيف ابن ذي يزن، وسيرة الزير سالم، وسيرة وتغريبة بني هلال...»[2]. وبذلك، «فسيرة الملك الظاهر بيبرس» تعطي صورة شيّقة عن عصر البطولة، عصر تأجج الروح للجهاد، بوجود رجال محاربين أشدّاء متصفين بالتضحية والعزيمة والقـوة والتصميـم علـى النصـر أو الاستشهـاد. وعليـه، فـالشهـادة تشكّل أحد مواضيع تلك السيرة الهامة، ويتمثل ذلك مثلاً في ضم

---

(١) الأشتر....، المصدر السابق، ص ٧٣.

(٢) الصراع الإسلامي الفرنجي...، ص ٥٨١.

أبطال كثيرين لها من «الفداوية»، من الإسماعيلية، الذين كما أورد الأستاذ برهان الدجاني في تحليله: «يظهرون في أحرج الأوقات والمعارك ويؤدّون دوراً مؤثّراً. . . ومن اللافت للنظر أن الحضور الإسماعيلي الذي نتحدث عنه مصدره بلاد الشام لا مصر، وهو ما يوحي بأن الإسماعيلية الفاطمية ربما كانت قد اندثرت في مصر، لكن الباطنية ظلّت متوقّدة في بلاد الشام، والمهم في الأمر، أن هذا التسلل الإسماعيلي يظهر الوجود الإسماعيلي وجوداً ملتزماً الإسلام والجهاد في سبيله، بصفة عادية ولو مع شيء من التأرجح. إلاّ أن هذا الوجود ذاته كان في فترة صلاح الدين، سواء في الشام أو في مصر التي كانت لا تزال تحت حكم الخلافة الفاطمية، يمارس لعبة «بقاء» في غمرة الصراع الإسلامي ـ الصليبي، مؤثراً ألا يتورط في انحياز كامل مع هذا الجانب أو ذاك، وربما كان هذا التغيّر الذي تعكسه الرواية في الموقف الإسماعيلي ناجماً عن رؤية صحيحة للمجرى التاريخي للأحداث، الذي أخذ ينذر بوضوح بتراجع «الصليبية» والقرب من نهايتها، وربما آثرت في تكوينه السياسات الحكيمة التي انتهجها صلاح الدين قبل نصف قرن من حوادث الرواية، بحيث فضّل التفاهم والتصالح مع الإسماعيلية على المواجهة العنفوية الدموية معها»[1].

إذن، فالرواية الشعبية عن الملك الظاهر بيبرس تقدّم صورة شيقة عن تسلسل الأحداث التاريخية في فترة حاسمة من المواجهة مع الصليبيين، وسياساتها، وأثر تلك السياسات في إحداث متغيرات ومستجدات للصالح الإسلامي ككل بالنتيجة. هذا، ومن بواعث أهمية تلك الرواية الشعبية «سيرة الملك الظاهر بيبرس»، أنها

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٨٣.

تشبه، بموجب تحليل الأستاذ برهان الدجاني لها، الملاحم الكبرى الواردة في الآداب العالمية، من زاوية «أنها تدور حول محاور واضحة من الأحداث التي ينتظم أشخاصها حولها، وتوضح من خلالها مشاهدها ووقائعها ولها محاور ثلاثة هي: أولاً؛ المحور الصليبي، ومضمونه الحركي والعاطفي ـ يقابله المحور الإسلامي ومضمونه الصمودي الواثق كمحور ثان مقابل. والمحور الثالث محور إيداعي لافت للنظر، يمثل شوق التلاقي المشروع بين المحورين المحتربين، في أوضاع التأجج العدائي المحيط بكل منهما، ولكل واحدة من هذه المحاور «رموز» من الأشخاص المجسّدين لمضامينه ومعانيه»[1]. إن تلك المحاور الرئيسية التي تدور عليها «سيرة الملك الظاهر بيبرس» تشكّل فعلاً، في السجّل التاريخي، أصدق صورة عن عصره، ولو منقوصة، ليبرز هو من خلالها كبطل، لا شعبي فقط، بل كبطل، بالمفهوم الفكري النظامي، الذي غيّر وجه التاريخ ببطولاته، في المحور الأول من السيرة، فهو يحمل في طياته دوافع الصليبيين الحقيقية لاحتلال أجزاء كبيرة من الأراضي العربية الإسلامية، من أبرزها التعصب ضد الإسلام، والتعصب يقع عادة في بوتقة الانفعال الذاتي للأفراد، ثم ما يتبع التعصب من مطامع، والمطامع أيضاً تتبع جانب الانفعالات النفسية المرتبطة بالتعصب، لتجريد أمة من حقوقها، وهزّ كيانها، بهزّ عقيدتها، كما فعل الصليبيون تماماً. هذا، وفي حالة الهزّة لشعوب كانت مطمئنة بشكل أو بآخر، بسبب الغزو الذي يهدف للقضاء على الدين، والهوية العربية الإسلامية، فالأمر كارثة تاريخية لهم. ولكن الكوارث تقابل عادة بمنحيين،

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٨٣.

في حالة عدم تمسّك الأمة المعنية بالأمر بالإيمان والعلم والمعرفة، فالغزو يقوّض مضاجعها تماماً، لأن الأمة تلك لن تكون في حالة من الإعداد النفسي لصدّ الهجوم، ولو مع الوقت، فتنهار إجمالاً. بيد أنه في حالة وجود دين بعقيدة، تدعو إلى ضرورة التصدّي للعدوان بقوة الإيمان، والأخلاق، فسوف تقف الأمة بصلابة لإنجاز المهمة، ولو كانت ضعيفة، مفكّكة، فالقيادة الحسنة التي لا بد وأن تأتي كنتيجة للمحن، فسوف تشكل العامل الجوهري في تغيير الأوضاع، في بناء قاعدة حربية صحيحة للوقوف أمام الأعداء مع تهيئة الجيش اللازم، وتنظيمه، وترتيبه، وتنسيقه، والتخطيط له بجدارة وإتقان، مع تهيئة معنوية لازمة، لتخطي الأزمة للنصر المطلوب، وهكذا كان الحال أيام الظاهر بيبرس، فقد أعاد الأمة إلى زمن بطولات نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، حتى أحبّه الناس حباً جماً كبطل، أعاد للإسلام عزته، وللمسلمين كرامتهم في ظروف عصيبة قلّما تواجهها أمة، بالذات، لأن الخطر في زمانه لم يقتصر على الصليبيين، بل أيضاً شمل التتار. وبذلك، أعاد للتاريخ، أو أفسح المجال له، للمضي في حركة بنائية أخرى، فلم تندثر الأمة الإسلامية، بل واصلت الكفاح من بعده، والمضي قدماً في الحركة الثقافية.

إذن، لقد ترك الملك الظاهر بيبرس أثراً ملحوظاً في التاريخ العربي الإسلامي في عصر المماليك، بحيث برز كبطل في السجلّات التاريخية، وكبطل في الرواية الشعبية أيضاً، ولكن لو أتت صورته كبطل، فذاك لا يعني أنه إنسان كامل، فإن للملك ذاك نقاط ضعف ككل مخلوق بشري، إذ أن الكمال لله تعالى وحده لا شريك له، ومن مناحيه السلبية قتله للمظفّر قطز، الذي حارب معه

في «معركة عين جالوت»، وذلك إثر طلب منه بتعيينه كحاكم لمدينة حلب، ورفض المظفر قطز لذلك، فتآمر بيبرس عليه، وأنجز ما أراد كما يظهر من الرواية الآتية: «وفي يوم ٢٣ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٢٦٠ م ـ وصل الجيش إلى دلتا النيل ورأى المظفر قطز أن يمضي يوماً من الراحة والخروج إلى الصيد في جماعة من أمرائه (من بينهم بيبرس وبعض أصدقائه) ولم يكد المظفر قطز يبتعد عن معسكره كثيراً حتى تقدّم إليه أحدهم متظاهراً بتقبيل يده والتماس طلب منه وأمسك بيده، وفي تلك اللحظة انقضّ المتآمرون، واندفع بيبرس فأتاه من الخلف، وغرس سيفه في ظهر قائده المظفّر قطز، ثم أسرع المتآمرون بخيولهم إلى المعسكر، وأعلنوا نبأ مصرع السلطان»[١]. وبعد ذلك، أصبح بيبرس سلطاناً، وهو يناهز الخمسين من العمر، وكان أقطاي هو الذي طلب منه «الجلوس في دست السلطنة، وكان أول من قدم له فروض الولاء والطاعة، وحذا حذوه جميع قادة الجيش»[٢].

والجدير ذكره هنا هو أن السؤال الذي يراود ذهننا هو كالتالي، هل جاءت مؤامرة بيبرس لقتل قطز وتنفيذها لأجل عدم إعطائه ولاية مدينة حلب كما وعده فحسب أم أن هنالك أسباباً أُخر خفية مثلاً؟ هل شعر أن قطز كان على نيّة الحد من نشاطه، ثم تجريده وإقصائه عن الحياة السياسية الحربية مثلاً؟ وهل سُدّت كل السبل للتفاهم بينهما حتى لجأ إلى قتل قطز، القائد الذي عمل تحت لوائه في عين جالوت؟ تلك المعركة المصيرية التي قضّت مضاجع التتار؟ ومهما يكن من أمر، فقتل بيبرس لقطز، يشكّل نقطة ضعف في

---

(١) العسلي، المصدر السابق، ص ٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١.

حياته، ولكن، ومع ذلك، لا يجرّده من بطولاته العظيمة والإنجازات الهائلة التي غيّرت مجرى التاريخ. فميزان التقييم للأشخاص يضم كل النقاط الإيجابية والسلبية معاً، والحكم على شخص أو آخر بالبطولة أو عدمها يأتي تبعاً لحجم الإنجاز، وحجم إنجاز الملك الظاهر بيبرس كبير تاريخياً في المجالات الروحية، والسياسية، والحربية، والثقافية، والعمرانية، ومما لا ريب فيه أن كلمة «الظاهر» تحمل كل تلك المعاني في طياتها. فأعماله كانت قيّمة، بنظرنا، حتى أنها أبرزت نفسها بنفسها للتاريخ، والذي تكون أعماله بارزة بذاتها لا بدّ وأن يكون هو شخصاً متميّزاً بتفكيره، بمعرفته، بتجاربه، بكفاءته، والشخص المتميّز هو الشخص الظاهر عادة، لا للسجلات التاريخية فحسب بأعماله، بل للناس أيضاً، وذلك هو الحال مع بيبرس. ولولا ذلك لما بات بطلاً شعبياً «تردّد اسمه الألسن وتلهج بذكراه القلوب»[1].

لقد ركّزنا، حتى الآن على الملك الظاهر بيبرس كبطل من خلال إعطاء صورة واضحة عن مشاكل عصره، مع دوره في تخطّيها، والملك الظاهر بيبرس هو الذي يشكّل موضوع دراستنا هذه. وطالما أن الأمر كذلك، فلا بدّ لنا بعد تلك المقدّمة الشاملة أن ننتقل إلى الخوض بالتفاصيل عنه. وهنا لا بدّ لنا من التحدث عن حياته الأولى حتى وصوله لمراكز عالية، فالسلطة وهو يناهز الخمسين عاماً. فكقاعدة، فإن إيفاء البحث عن أي بطل، يتطلب أولاً الخوض في حياته وتسليط الضوء على

(١) الأشتر. . . .، المصدر السابق، ص ٨٧ ـ ٨٨.

أعماله واتجاهاته، مع تطور الزمن. إذن، فالفصل القادم، أي الأول من هذه الدراسة، سوف يتناول موضوع نشأة بيبرس.

على أنه قبل الانتقال إلى ذلك الموضوع، علينا أن نذكر كلمة عن المصادر في هذا البحث. طبعاً، في دراسة كهذه، سوف نستقي معلومات من الكتب المتخصصة بالملك الظاهر بيبرس أولاً، ثم الكتب التاريخية التي تتناول المماليك ثانياً، وفيما عدا ذلك، فسوف نعود لكتب عن الفكر الإسلامي، للاستفاضة في شرح نقطة، أو تدعيم نقطة أخرى. ومع كل ذلك، فسوف يتم اعتمادنا على الاجتهاد الشخصي حتى تخرج هذه الدراسة من الإطار السردي الوصفي، إلى الإطار التحليلي الذي تقدّم من خلاله أفكار جديدة، تضيف لعالم المعرفة الحديثة في حقل التاريخ العربي الإسلامي. هذا مع العلم بأن الخروج عن حيّز السرد والوصف، إلى حيّز التحليل والاستنتاج القائم على قواعد راسخة، يمثّل الطريق للتوصل للدروس والعبر. وأهمية العبر تكمن عادة في فائدة عملية ناتجة عنها، ألا وهي الاستعداد لمستقبل أفضل. فالدروس المستقاة من الماضي تمثّل الطريق لفهم الحاضر لحسن الاستعداد لما هو آتٍ. هذا، وفي ظروف دقيقة يمرّ بها عالمنا العربي، فعسى أن تكون في هذه الدراسة عبراً لتخطّي المحن المحدقة بذلك الجزء من العالم، لتمضي المسيرة التاريخية إلى حركتها السليمة، التي تحمل الاستقرار والازدهار في طياتها.

الفصل الأول

حياته وإنجازه في «معركة عين جالوت»

١ ـ الحياة الأسرية مقابل حياة المملوك[١]

كقاعدة عامة، لمّا ينمو شخص ويترعرع ويشبّ في كنف والدين عطوفين يعلّمانه ويدرّبانه بالإطار اللازم للعمل الفعّال، ومواجهة المحن، يكون قد حظي بحياة أسرية مطمئنة، ولكن لمّا يُحمَل أسيراً في غارة، ويُشترى من تاجر أو آخر، ليصبح صفقة للبيع، لا بدّ وأن يمرّ في فترات صعبة من عدم الاستقرار، والخوف من المجهول، ولا بدّ وأن يعاني من عدم مروره بالتجربة الأسرية، التي تشكّل المجرى الطبيعي في حياتنا كبشر، لمّا يفقد الإنسان والديه، ويُؤسَر، ويُشترى ويُباع، لا بدّ وأن يُحسّ أنه يفتقد

---

(١) بصدد تعريف المملوك يقال «المملوك وجمعه مماليك اسم مفعول مشتقّ من الفعل العربي «مَلَك»؛ ويقال عبد مملكة بفتح اللام وضمّها إذا سُبي ومُلك دون أبويه. ويبدو أن هذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم، حيث وردت عبارات «ملكت أيمانكم» و«ملكت أيمانهم» و«ملكت يمينك» أكثر من مرة. ولم يلبث اللفظ أن اتخذ معنى اصطلاحياً خاصاً في التاريخ الإسلامي، فأصبح يقصد بالمماليك جموع الرقيق الأبيض الذين كانوا يصبحون رقيقاً إما نتيجة للأسر في الحرب أو للشراء من التجار الذين يجلبونهم إلى البلاد الإسلامية حيث يطلبون أثماناً مرتفعة لبضاعتهم». القضاة....، **المصدر السابق**، ص ١٧٧.

إلى التملّك لعناصر إنسانيته، من شعور بالاستقلال الذاتي، والحرية، والكرامة. ولكن إن حالفه الحظ أخيراً بالاستقرار في بيت صاحب منزلة دنيوية عالية، وأفسح له ذلك الشخص المجال لإظهار كفاءته، والتعبير عن نبوغه في الحياة العملية، إلى أن يصبح مستقلاً بنفسه؛ فعندها قد تسير حياته في واحد من اتجاهين: أولهما، إمّا أن تنعكس مرارة معاناته، وتشتيته، وبيعه، وشرائه على شخصيته، فيسيطر عليه الحقد من كل شيء، فينفّسه في معاملاته مع الآخرين وهنا تتعقّد الأمور في وجهه بالنتيجة وفي وجه الآخرين، أو أن مرارة ظروفه الحياتية وقسوتها، قد تدفعه لدرء المحنة التي مرّ بها عن الآخرين. وهذا يعني أن حرمانه السابق يتحول إلى مشاعر فائضة من العطف على المظلومين، والحرص على المحرومين، والتصدّي لقُساة القلوب لكبح جماح ظلمهم في غيرته على العدل والحق. وبكل تأكيد، فإن بيبرس، أحد المماليك الذين مروا بظروف قاسية اتخذ الاتجاه أو المنحى الثاني طريقاً له في الحياة، أي منحى حبّ الخير للناس، والاستماع إلى مشاكلهم، والشعور مع المظلومين، والعمل لإخراجهم من الظلم، وإعطائهم حقوقهم في العيش الكريم كبشر مثله. وطبعاً، لمّا ينحو إنسان مملوك، عانى ما عاناه في حياته الأولى لمثل ذلك، فهذا يعني أنه تمكّن من خلال الإيمان الشديد، من الانضباط العاطفي، ومنع الحقد من السيطرة عليه، والتحكّم فيه، بحيث يخضع لعبوديته. وبيبرس كما يبدو من تصرفاته وأعماله كان شخصاً مؤمناً، فالإنسان الصادق المخلص في مجابهة الصليبيين والتتار، الحريص على الأماكن المقدسة، وعلى إبقاء رمز الخلافة، لا بدّ وأن يكون شخصاً قوياً بإيمانه، بأخلاقه، بكفاءته، وإن عبّر عن ضعف بشري بقتل المظفّر قطز، فذاك

حادث أصلح بعده، بالتعويض بإنجازات عظيمة، قوّضت مضاجع الصليبيين والتتار في فترة تاريخية عصيبة واجهت الإسلام والمسلمين.

٢ ـ حياة بيبرس كمملوك

أ ـ رفض صاحب حماة لشرائه

ومهما يكن من أمر فمع عودة أخرى إلى حياة بيبرس، يروى أنه كان أسيراً لدى المغول، فاشتُرِي من قبل تاجر رقيق، ثم انتقل بين أيدي التجار لحين وصوله إلى مدينة حماة ببلاد الشام. في تلك المدينة، عُرِض للشراء على صاحبها، الملك المنصور، فرفضت أمه قائلة عنه «هذا الأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة فإن في عينيه شرًّا لائحاً»[(١)]. هذا، ووصف بيبرس، الذي يقال بأنه كان ينتمي إلى الأتراك القبجاق، ورد كالآتي: «ضخم الجثّة، أسمر البشرة، أزرق العينين، ذا صوت جهوري، شديد الوقع...»[(٢)] يُظهر قول المرأة، حكماً على بيبرس من هيئته العامة. فكأن ضخامته، وجهورية صوته، أخافت أمّ صاحب حماة، فمن الواضح أن بيبرس كان شخصاً مميّزاً، ويلفت الأنظار في تميّزه ذاك، وربما حسبت حسابات محورها أن ذاك الإنسان، قد يشكّل بوجوده خطراً على صاحب حماة بشخصيته القوية، فعبّرت عن عدم رضاها من شرائه بعبارتها المبينة أعلاه. ولكن ذاك يحمل في ثناياه رفضاً لشخص، لا يكفي أنه أُسِر، وحُرِم من بيته وبات بضاعة للبيع، بل

---

(١) الأشتر....، المصدر السابق، ص ٢٣ ـ ٢٤.
(٢) العسلي، المصدر السابق، ص ١٦.

عُرضة للتفحّص عن كثب، ورفضه من قِبل أمّ صاحب حماة لخشيتها منه في غالب الظن على مركز ابنها، دون محاولة لمعرفته. صحيح أن الشكل الخارجي يُعطي انطباعاً قوياً لأول وهلة، ولكن قد يكون ذلك الانطباع إمّا صحيحاً، أو مغلوطاً، أو وسطاً، والحكم عادة يترك للتجربة اليومية حتى يكون سليماً أو أقرب إلى الصحّة.

ب ـ شراء بيبرس من الأمير علاء الدين أيدكين البُندقدار

هذا، وما أن تمّ رفض شراء بيبرس من قِبل صاحب حماة، بكل ما قد يحمله ذلك من ألم له في ثناياه، حتى ساقه التجار نحو مدينة دمشق. وهناك تمّ بيعه بثمانمائة درهم، ولكن بقيت حياته غير مستقرّة، إذ من الواضح أن الذي اشتراه كان ينظر إليه كصفقة تجارية، قد يربح فيها غداً، لو وصل إلى المكان الصحيح لبيع بيبرس، وتجّار الرقيق بمفاهيم ذلك العصر لم يكن يهمّهم إنسانية الإنسان أو مشاعره، بل إن المال كان كل همّهم. فالإنسان بات لديهم تماماً مثل أي سلعة تباع وتشترى. وهكذا، بقي المسكين بيبرس يتنقل مع من اشتراه بصحبة تجار الرقيق، حتى عودته مرة ثانية إلى مدينة حماة، حيث وجد أمير من المماليك، يسمّى البُندقدار، في بيبرس ما يريده، وأدرك تميّز بيبرس بالذكاء، فاشتراه، وذهب به إلى مصر وقت حكمها من الصالح أيوب. بيد أنه صادف «أن غضب الملك الصالح على الأمير البُندقدار فصادر أملاكه وضمنها المملوك بيبرس، وقد أعتقه الملك وأتيحت له فرص إظهار وضمها مزاياه وإمكاناته، ولم يلبث أن أصبح مقدّماً على طائفة الجمدارية (وهم الذين يتولون الإشراف على ملابس الملك)»[١].

---

(١) الأشتر. . . .، المصدر السابق، ص ٢٤ ـ ٢٥.

ج - صعود نجم بيبرس

إذن، فبعد وصول بيبرس إلى الملك الصالح تغيّرت حياته بشكل ملموس. فبعد أن كان يباع ويشترى، ويرفض ويقبل بمزاج هذا أو ذاك، ويتنقل بين تجّار الرقيق، بات معتقاً. وهنا أفسح له المجال لإظهار مزاياه وإمكاناته. فعادة، إن القدرة على إبراز ذكاء وفطنة أي شخص معني بالأمر، من خلال تصرفاته، وعلاقاته مع الآخرين، وأعماله، لا تتم إلاّ عندما يمتلك الإنسان حريته المشروعة في التعبير عن أفكاره. والتعبير عن الفكر هو الوسيلة للإنجاز السليم، وذاك يبيّن بأن الإنسان لا يمكن تقرير شؤونه بنفسه إلا عندما يكون حراً. بمعنى «أنه لا يمكنه أن يكون مسؤولاً إلاّ إذا كان حراً. . . (ولا) يكون إنساناً إلاّ إذا كان حراً»[1]. وطبعاً، الحرية لا تكون مطلقة للأفراد والجماعات، والدين الإسلامي يضع الحرية كحقّ أساسي في الحياة ضمن قيود لمنع الفوضوية من التسرب إلى حياة الأفراد والجماعات، والحرية، بإطارها الملتزم في الإسلام، تمهّد الطريق للتعبير عن الرأي بأصول، ومنطق، والدفاع عن العقيدة وقت الضرورة.

بإبقاء تلك المعلومات في ذهننا، وبالعودة مرة أخرى إلى بيبرس، نقول ثانية بأن إعتاقه، مهّد له السبل لإثبات ذاته حتى بات يعلو، ويترقى في الميدان الوظيفي. والترقية عادة لا تأتي، بموازين العدل، إلاّ لمّا يكون الإنسان كفوءاً، ومن الواضح أن بيبرس كان كذلك، وأنبأت كفاءته تلك بدور مستقبلي عظيم له في مجال السلطة. وربما ساهمت في ذلك متغيّرات ومستجدات

---

(١) أحمد أمين، كتاب الأخلاق (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٤)، ص ١٦٤.

في الساحة لا بدّ لنا من التوقف قليلاً عندها.

٣ ـ وفاة الملك الصالح والأحداث الجارية بعده لحين تولّي قطز لسلطنة مصر

ظهرت بوادر تلك المستجدات بوفاة الملك الصالح، ثم تولّي السلطة من بعده، من قبل ابنه الصغير المسمى بـ «تورانشاه». ولكن لعدم نضوج تورانشاه، لم يتمكّن من استيعاب دور المماليك العظيم في مجابهة الصليبيين، بل اكتنفه شعور محوره «بأن المماليك يزاحمونه الحكم ويقاسمونه سلطانه، ولم يلبث أن أضمر تورانشاه للمماليك البحرية أمراً»[١]. فرأى المماليك ضرورة التخلص منه في وقت دقيق من حياة الأمة العربية الإسلامية فقتلوه، بتشجيع من امرأة أبيه شجرة الدر عام (١٢٥٠ م). إذ يقال إنها بزواجها من عزّ الدين أيبك، باتت تخشى من غدر تورانشاه لها. فبعثت برسالة إلى المماليك البحرية تقول فيها «اقتلوا تورانشاه وعلى رضاكم»[٢]. هذا، وبعد قتل تورانشاه تسلّمت شجرة الدر السلطة، ولكن، مع الوقت، اختلفت مع زوجها زعيم المماليك، عزّ الدين أيبك، فقتلته عام (١٢٥٧ م). وانتقاماً لزعيمهم قتل المماليك شجرة الدر عام (١٢٥٧ م)، وولوا ابنه على السلطة مكانه في مصر[٣]. إذن، ها نحن أمام متغيرات مكثفة في الساحة المصرية. وكقاعدة، لمّا تجري سلسلة من المكائد كتلك في مجال الحكم، تضعف قوة العائلة المالكة، ومع ذلك الضعف، يصعب

---

(١) القضاة....، المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨٤.

(٣) الأشتر....، المصدر السابق، ص ٢٥.

عليها مواجهة التحدّيات والأخطار المحدقة. ومن هنا، يبيت التغيير أمراً ضرورياً، لاستبدال قيادة ضعيفة بأخرى قوية. وهذا ما حصل بالضبط في مصر وقتذاك، فقد برز شخص قوي على الساحة اسمه سيف الدين قطز، فأعلن نفسه سلطاناً على مصر. ومنذ اعتلائه لعرش الحكم، عبّر عن مظاهر القوة في تجهيز مصر من أجل مجابهة الغزو المغولي الذي كان قد ابتلع بلاد الشام بعد سقوط بغداد، عاصمة الخلافة العباسية. إذن، ها نحن أمام رجل قوي، مسؤول، تخلّص من سلطة ضعيفة في مصر، لكي يقوّي الوضع الداخلي فيها، ويبني جبهة قوية لمواجهة التحديات ضد الإسلام والمسلمين في فترة دقيقة وحساسة من تاريخهم، وقد كان حكيماً في هذا، إذ ما كاد يفعل ذلك، حتى وصلته سفارة من جانب هولاكو في أوائل عام (١٢٦٠ م) للطلب إليه بوجوب الإذعان لسلطان المغول. فكيف كان ردّ فعله إزاء ذلك التحدّي الجارف؟ طبعاً، كشخص قوي مثله، مدرك لما جلبه المغول من محن ومصائب للعالم العربي الإسلامي وخصوصاً أن بلده باتت ملجأ لكل القادة الرافضين للخضوع للمغول، والاعتراف لهم بالسلطة إضافة لفلول القوات «التي مزقتها جموع المغول، ومنها على سبيل المثال الخوارزمية وقوات أمير الكرك الأيوبي»[١] فكان من الطبيعي أن يرفض سفارة هولاكو، ولم يتوقف حتى عند هذا الحدّ، بل أقدم على قتل رسول هولاكو. وتجدر الإشارة هنا إلى أن كون مصر ملجأ للهاربين من لهيب التتار قد شكّل عاملاً فعّالاً لإقدام قطز بانقلاب على الحكم، إضافة لأمور مذكورة أعلاه،

---

(١) العسلي، **المظفر قطز ومعركة عين جالوت** (بيروت: دار النفائس، ١٩٩٢)، ص ١١٨ ـ ١١٩.

فلا بدّ وأنه أدرك من خلال اجتماعاته بهم أن الوضع على الساحة الشامية كان مؤسفاً، وأن دور مصر قادم. فأعدّ العدة، وفعلاً، فطلائع التحدّي لمصر أتت في الرسالة الوعيدية من هولاكو إلى قطز. ويمكننا أن نتصور أن مقابلة تحدي هولاكو وعجرفته بتحد من قطز، بقتل سفيره كان له وقع إيجابي في مصر وغيرها، إذ لما تسوء الأوضاع، ويشتد الظلم والطغيان، يتطلّع الناس إلى منقذ يتحدّى العدو المتغطرس بقوة، ولا يكتفي بالتحدي النظري، بل يتبعه بتحد عملي. هنا يتكاثر الملتفون حوله لمساندته في عملية إنقاذ لهم بقيادته، ويضعون ثقتهم به لرسم السياسة الحكيمة التي تلبّي الحاجة بالإطار السليم.

٤ ـ قطز ومجريات الأحداث قبل «معركة عين جالوت»

بأخذ ثقة الناس، ومضيّ قطز في التخطيط لمواجهة الموقف الحسّاس الذي كان يتعرض الإسلام والمسلمون إليه، وجد أولاً أن الموقف يتطلّب منه دفع الصليبيين حتى يقفوا على الحياد بصدد صراعه مع المغول، وخصوصاً أنه كان مضطراً للمضي على ساحل فلسطين، ثم السير نحو مناطق داخل بلاد الشام، مع توجّهه نحو أقصى الشمال، من أجل تهديد مواصلات عدوّه «كتبغا» إن تقدم نحو فلسطين. وعليه، أرسل سفارة مصرية نحو «عكا» لطلب السماح بعبور الأراضي المحتلة من الفرنج، ثم الحصول على المؤن المتطلّبة لجيشه في أثناء مسيرته. هذا إضافة لدراسة «إمكانات تقديم دعم حربي حقيقي لجيش المسلمين ضد المغول»[1]. ولمّا

(١) المصدر نفسه، ص ١١٩.

وصل قطز إلى عكا، اجتمع بكل بارونات الفرنج هناك لبحث طلبه. ومع أن الفرنج هم الذين شجعوا المغول، بل وحثوهم على العبور لبغداد لتقوية وجودهم (أي الصليبيين)، إلا أنهم تلك المرة كانوا يشعرون بنوع من الغضب على التتار، بسبب نهبهم لمدينة صيدا منذ وقت قريب لذلك الاجتماع، ولكن غضبهم من المغول، لظروف معينة، لا يعني بالواقع أن التقارب بمعناه الصحيح، سوف يتـمّ بيـن قطـز والصليبيـين، فـالعـداء الطـويـل مـن الصليبيـين للمسلمين، والألم الدفين في نفوس المسلمين لن يزول كله في اجتماع. وقد وردت أصوات بالتحذير من الوثوق بالمسلمين، من مقدم طائفة الفرسان (التيوتون)، من الألمان، الذي كان يؤيد المغول، واسمه «أنو سانجر هاوزن»، وكان لموقفه «تأثيره على مجلس البارونات فتقرّر رفض التحالف العسكري مع المسلمين، على أنهم وعدوا السلطان بأن يسمحوا له باجتياز أراضيهم وأن يقدّموا له المساعدات اللازمة لضمان تموين جيشه»[١]. إذن، ولو أن قطز لم يحصل على كل ما كان يتطلّع إليه، إلاّ أنه حصل على أشياء هامة بالإطار العسكري، ولا بدّ وأن ذلك دعّم من مركزه القوي أصلاً. وبعدها أكمل قطز استعداداته الحربية، وكوّن مقدّمة لجيشه، ووجه أمراً للقائد بيبرس بالتقدّم. وهنا، نرى ارتقاء في حياة بيبرس العملية، فقد وصل إلى القيادة العسكرية، ولولا أنه لم يبرز كفاءة ومهارة عسكرية، لما وصل إلى هذا المركز. فماذا فعل بيبرس؟ انطلق، وتمكن من تجاوز الحدود في ٢٦ تموز من عام (١٢٦٠ م)، ثم زحف نحو مدينة غزّة، ولمّا لم يكن بتلك المدينة إلاّ قوة صغيرة في حجمها تحت لواء «بايدار»، «فقد تمّ إرسال

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

إنذار إلى «كتبغا» لإعلامه بتقدّم القوات المصرية وطلب إرسال الدعم، إلاّ أن «بيبرس» تحرك بسرعة ونجح في الاستيلاء على غزة وتدمير حاميتها قبل أن يصلها أي دعم»[١]. إذن، فذاك يشكل ظفراً ملموساً لبيبرس قائماً على تفهّم عميق للوضع العسكري في غزة، والتحرّك بسرعة للمدينة للاستيلاء عليها وتدمير حاميتها، والتحرّك السريع في المواقف الحسّاسة مظهر من مظاهر النبوغ والفطنة، ولمّا يكون ذلك التحرّك قائماً على علم بالشؤون العسكرية أو دراية بالسياسة، وإخلاص للدين، يكون النجاح أكيداً في الأغلب. هذا بالنسبة لتحرك بيبرس وإنجازه ولكن ماذا عن قطز؟.. لقد أقام معسكر جنده في الحدائق التي كانت تقع في خارج أسوار مدينة عكّا، ووقتها توصّل حاكم المدينة لقرار دعوة مجموعة من أمراء السلطان قطز لزيارة تلك المدينة كضيوف شرف، وكان بيبرس من بين المدعوّين، حيث كان قد وصل للمكان، وبوجوده هناك، قدم اقتراحاً لقطز، بعد العودة من زيارة المدينة (أي عكّا) للاستيلاء عليها بهجوم مفاجىء انطلاقاً ضعف حاميتها، ولكن قطز رفض ذلك. إذ أن قطز ذاك لم يكن على استعداد لخيانة الذين اتفق معهم على شروط معينة أولاً، ولم يكن مستعداً لأن يعرّض قواته «لغزوات انتقامية من قبل الإفرنج في حين أنه لم يحسم الصراع بعد مع المغول، العدو الأساسي الذي خرج لحربه»[٢]. ومما لا ريب فيه أنه مع كفاءة بيبرس السياسية والعسكرية، إلا أن السلطان أبدى حكمة أكبر وتمسكاً بالمواثيق منه هنا مع التركيز على الهدف الواحد، إذ لمّا يشتّت الجيش قواه لأكثر من ميدان، تصبح

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢١.

«الخسارة» واردة في الصورة. ومن هنا، يمكننا أن نتصور أن بيبرس تعلّم من قطز في هذا المضمار، فتوسّعت آفاق علمه حيث أن الإنسان يتعلّم دوماً من التجارب. ومهما يكن، فقد كان توقف الجيش العربي الإسلامي في ظاهر عكا «مناسبة جيدة للمسلمين الذين كانوا في حاجة لفترة قصيرة من الراحة بعد عناء المسير الطويل في سيناء خلال أصعب شهور السنة»[1].

٥ ـ معركة عين جالوت ودور بيبرس فيها

هذا، وفيما كان «قطز» في مدينة عكا، علم بعبور «كتبغا» لنهر الأردن، ووصوله إلى الجليل الأعلى، فبادر رأساً لقيادة جنده صوب الجنوب الشرقي، وتمّ اجتيازه لمدينة الناصرة حتى وصوله عام (٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م) إلى «عين جالوت»، مكان تحدّي الصليبيين لصلاح الدين الأيوبي بكتائب كرجية وأرمينية بقيادة «كتبغا»، الذي مع قوة جيشه وضخامته، افتقر إلى عناصر الاستطلاع، بالرغم من أهميتها في الحروب، وتلك لم تكن في صالحه، وإضافة إلى ذلك، فقد كان شعور الناس يقع في الإطار المناوىء له، ممّا وقف حاجزاً من دون معرفته للموقف السليم من الناحية الطبوغرافية، وجانب الوضع في المعسكر الإسلامي. وفي الوقت نفسه، لم يعلم بأن جيش المسلمين كان في غاية القرب منه، وأن جهاز استخبارات المسلمين كان يترصّد لكل تحركات قوات التتار. هذا، في وقت كان قطز يضع مخططاً للإيقاع بكل جيش المغول، دون ترك ثغرة له للنجاة بنفسه، أو التملّص من

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢١.

المعركة، ومن نقاط مخططه الأساسية، البدء بعملية تشتيت للقوات المغولية، بل واستنزافها قبل الوصول لمرحلة القضاء عليها. ومن تلك الزاوية، أخفى قطز الكتلة الرئيسية من قواته في التلال الغربية، حيث لم يكشف للتتار إلاّ عن المقدّمة بقيادة بيبرس، فماذا حصل بعد ذلك؟ نظّم كتبغا، القائد المغولي جيشه، وعندما رأى مقدمة الجيش الإسلامي في مواجهته، وضع جميع قواته في ساحة القتال أملاً في حسم المعركة لصالحه بأقصر وقت ممكن. وطبعاً، فتلك شكّلت الفرصة المنتظرة لبيبرس ورجاله، «فخاض معركة قاسية ثم تظاهر بالتراجع نحو التلال، وأسرع «كتبغا» لمطاردة «بيبرس»، ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى تمّ تطويق الجيش المغولي بكامله، وبصورة مباغتة، ومضت بضع ساعات من الصراع المرير، حاولت خلالها مجموعات من رجال «كتبغا» أن تشقّ لها طريقاً للخروج من دائرة الحصار، فكانت سيوف المسلمين في انتظارهم، ولم يتمكن من النجاة سوى عدد قليل من المغول، وتحوّل ميدان المعركة إلى مجزرة حقيقية، ورغم ما تكبّده المسلمون من خسائر، إلاّ أنهم استطاعوا انتزاع النصر»[(١)].

٧ ـ أهمية تلك المعركة وانعكاسات ذلك على بيبرس

بناء على ما تقدّم، يستطيع القارىء أن يرى أنه بالرغم من أن المخطط الجوهري للمعركة تلك هو «قطز» إلاّ أن بيبرس لعب دوراً هاماً فيها، فقد كُلّف من جانب قطز بمهمة صعبة، وهي قيادة مقدّمة الجيش في حيلة أعدّها (أي قطز) لإنزال هزيمة ساحقة

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

بالتتار بموجب ترتيبه. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه إذا خطط القائد العام بحذاقة وإتقان لإعطاء مهمة لقائد آخر، مهمة مصيرية فعلاً، فذلك قد لا يعني أن النصر محقق تماماً، إذ قد لا يقدر القائد الثاني المسؤول، على تنفيذ مهمته، لظروف طارئة، ظروف أقوى من المخطط، بل ومن إمكاناته وقدرات استيعابه للأشياء، وهنا قد يفشل، ولكن إن تمكّن ذاك الشخص بموقفه من التغلب على الطوارىء في بدء المعركة، فذلك يعني تمكّنه من السيطرة على المواقف، والتكيف بها حسب الظروف. بالنسبة لبيبرس، فمن الواضح أنه استوعب الخطة تماماً، فقد أدرك أن «كتبغا» سوف يرى مقدمة جيش قطز، التي يرأسها، بعين الاستخفاف، فيظن عندها أنه لو رمى بكل ما عنده في المعركة، فقد يثير حالة من الفوضى والاضطراب في صفوف المسلمين، فيحرز نصراً في أسرع وقت ممكن عليهم، وربما تكون حساباته صحيحة لو أنه لم يكن مقابل بيبرس بالذات. فبيبرس، كما يبدو لنا، حَسَبَ الأمور بشكل معاكس تماماً لـ «كتبغا»، حسب أنه لما يقدم ذاك بكل ثقله المادي للمعركة ويظن أن النصر بات وشيكاً ـ عندها يبعد هذا عن نظره ـ وذلك من خلال استبسال في مقاومة جيشه، ضمن تنظيم، وترتيب، وتنسيق للمقدّمة من الجند، بما يتلاءم مع الموقف. هذا، ولما ينازل الجيش المتغطرس مع قائده، الفريق الآخر، ويفاجأ بقوة لم تكن محسوبة أصلاً من ذلك الطرف، فلن يرضى قائد الأعداء، وهو «كتبغا» هنا، بهزيمة، بعد ظنّه بأن النصر في يده، وعليه، فسوف يشتد في القتال. . لقائد فذّ مثل بيبرس، فذاك معناه تهيئة الأجواء له للانسحاب التدريجي بمقدمته نحو جيش قطز الذي ينتظره، ويكون الانسحاب هنا بشكل طبيعي، بحيث لا يساور العدو أي شك منه، فيلحق بالمنسحبين، وهو يظن أنه في

الموقف الأعلى، وأنه سوف يعطي المسلمين درساً لكي يعرفوا من هم المغول، ومن هو «كتبغا». وهذا ما حصل بالضبط، لَحِقَ «كتبغا» مع جيشه بيبرس، وهو ينسحب بجنده، فوقع في مطبّ المحاصرة من جيش قوي للمسلمين. وفي تلك الأحوال، لا بدّ من لجوء الأعداء لإيجاد منفذ للخروج من المأزق، ولكن شدة الحصار وإحكامه تمنعهم من ذلك، وبهذا أطبق المسلمون على المغول، بحيث لم ينجُ منهم إلا القليلون. وطبعاً، في حصار محكم على المغول، ومحاولات لإيجاد ثغرة للتغلب على المحنة وفشلها، فلا بدّ وأن تدور إثر الفشل، معركة حامية الوطيس!! المغول، بعد انتصارات كبيرة، يفاجأون بواقع جديد، هزّ كيانهم هزاً، والمسلمون، على إثر محن متجسّدة في احتلال بغداد، فبلاد الشام، وتهديد لمصر، كانوا يحاربون بقوة الإيمان والعقيدة، مع تطلّع إما إلى الفوز أو الاستشهاد، لأن كيانهم ووجودهم، وعزّتهم تكمن في هذا النصر. ومن هنا، دار قتال شديد، نال فيه المسلمون نصراً عزيزاً، بالرغم من ما تكبدوه من خسائر في حين أن هُزِمَ التتار هزيمة منكرة؛ ربما طغت أنباؤها على كل ما حققوه من تقدم وتوسع في البلاد العربية الإسلامية، إذ ما فائدة الفتوح كلها، لمّا تأتي معركة فاصلة، تهزّ كيان المحتلين هزاً، وتعطيهم درساً بأن ما أخذوه بالعنف، سوف يعود إلى أصحابه؟

وبهذا الإطار، تبرز أهمية «معركة عين جالوت»، تلك المعركة التي جاءت كرادع للتتار، وتذكيرهم بأنهم إن أرادوا القضاء على الإسلام، فالإسلام لا يزال بخير، وأنهم إن أرادوا القضاء على المسلمين، فالمسلمون قادرون، بوحي من عقيدتهم، على الانتصار عليهم، وأنهم إن ظنوا أن عهد البطولات قد انتهى بموت

صلاح الدين الأيوبي، فالبطولات توجد دائماً مع تأجج العقيدة الإسلامية في القلوب، وأنهم إن ظنوا أن قهر بغداد وبلاد الشام، يسبب الإحباط في نفوس المسلمين، فلا إحباط بتاتاً مع وجود الإيمان. قد يهزم المسلمون بمفاجآت للعدو المتغطرس لم تكن بالحسبان، ويمنون بخسائر كبيرة جداً، ولكن لا بدّ وأن يذهب هول المفاجأة بالإيمان، ولا بدّ وأن يظهر رجال بقوة المعنى والروح لدراسة الأوضاع عن كثب وإصلاح ما يمكن إصلاحه، عن طريق التوعية، والإنارة الفكرية وإثارة الحماس للجهاد في النفوس، حتى يأتي الوقت الذي لا يقف فيه المتضررون في الإطار الدفاعي فقط، بل يخرجون إلى الإطار الهجومي، الذي يتطور فيصل إلى نقطة المعارك الفاصلة لصالحهم. وهكذا بلغ بالمماليك إلى أن وصلوا لنقطة النصر الحاسم في «معركة عين جالوت» بعون الله تعالى. فهم قد حاربوا تحت مظلة التوحيد بإخلاص وصدق، وأيّدهم الله تعالى بنصره، حتى يبيّن، بعزّته وجلاله، للتتار بأنه هو الحافظ للإسلام وأهله، وأنه هو الذي هيّأ لهم أسباب النصر، وأن المسيرة التاريخية سوف تمضي، والإسلام دعامتها، حتى فناء الأرض:

﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ [سورة الحجر: الآية ٩].

إن القرآن الكريم، المرتكز الرئيسي في الإسلام، والذي يسير المسلمون بهداه في تاريخهم «باق محفوظ لا يندثر ولا يتبدّل، ولا يلتبس بالباطل ولا يمسّه التحريف وهو يقودهم إلى الحقّ برعاية الله وحفظه، إن كانوا يريدون الحق»[1]. فمهما واجه الإسلام من

---

(١) قطب، المصدر السابق، مجلد ٤، ص ٢١٢٧.

أحوال سيئة وظروف عصيبة، وملابسات خلال التاريخ، فالقرآن يبقى في الصون والحفظ من قبل الله تعالى. أما والحال كذلك، فمهما التوت الموازين ضد الإسلام وأهله، لا بدّ وأن تعود، طالما أن القرآن محفوظ من السماء، وطالما أن المؤمنين به يستمدون منه العلم الكفيل بتزويدهم بالقوة اللازمة لتثبيت الحق، وإقرار العدل. هذا، وقد ثبّت الحق في «معركة عين جالوت» التي أظهرنا زوايا جوهرية عن أهميتها، كما نراها، في التاريخ. ولكن هنالك زوايا أخرى هامة أيضاً لتلك المعركة الفاصلة، أوردها بسّام العسلي في كتابه «المظفّر قطز ومعركة عين جالوت»، في الفقرة التالية: «وكان من نتيجة المعركة... دعم المغول (الأيلخانية) وحملهم على اعتناق الإسلام والدفاع عنه، وعجّلت هذه المعركة بزوال الإمارات الصليبية، إذ استعاد المسلمون قدرتهم بسرعة فائقة، وأصبح بإمكانهم العمل للتخلّص نهائياً من أعداء الدين، وبذلك تكون معركة (عين جالوت) نقطة التحوّل الحاسمة في الصراع ضد الصليبيين وضد المغول في وقت واحد...»[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه بعد تلك المعركة الفاصلة التي يُعزى فيها النصر لقطز وبيبرس والقوة القتالية الهائلة لجند المسلمين، دخل قطز إلى مدينة دمشق، فبات بذلك سيد الموقف في كل من مصر والشام. في ذلك الوقت، طلب منه بيبرس أن يعطيه إمارة حلب، فرفض قطز ذلك، فدبّر بيبرس مؤامرة لاغتياله، وتمّ ذلك، كما ذكرنا سابقاً، وبات بيبرس السلطان الجديد بعد مقتل قطز. وبتولّيه السلطنة، دخل بيبرس إلى قلعة الجبل، وذلك

---

(١) العسلي، **المظفر قطز...**، ص ١٢٦.

يوم ٢٣ تشرين الأول من عام (١٢٦٠ م)، فأخذ مقاليد الحكم، ولقّب «بالقاهر»، ولكن غيّر اللقب إلى «الملك الظاهر». وقد شرحنا معنى «الظاهر» سابقاً، وبيّنا أن ذلك اللقب الذي أُعطي لبيبرس تناسب مع سياساته وإنجازاته المدنيّة والعسكرية. هذا، وسوف نركز في «الفصل الثاني» من هذه الدراسة على مواجهة الملك الظاهر بيبرس للصليبيين، في حلقة جهاد هامة في التاريخ العربي الإسلامي.

الفصل الثاني

أثر سياسة بيبرس الداخلية والخارجية في البنية العسكرية والإنجازات الهامة

١ ـ الإعداد الروحي والفكري والمعنوي لجبهة داخلية قوية للانطلاق للجهاد

عندما يأخذ حاكم على عاتقه مسؤولية الجهاد في فترة عصيبة من تاريخ أمته، لا بدّ له من الإعداد الحربي الصحيح. ولكن الإعداد السليم لا يمكن أن يتم إلا في حالة رسم سياسة داخلية حكيمة قائمة على الحرية بإطارها الروحي الملتزم، والعدل، والمساواة. والحرية تضم نوعين، حرية التعبير عن الرأي، ثم حرية العمل. فالإنسان كمخلوق، مميّز عن باقي المخلوقات، بالعقل، والعقل هو أداة التفكير للوصول إلى الإيمان المستنير، والعمل القويم. وذاك يعني أن تصرّف الإنسان مرتبط بتفكيره، وطالما أن تفكيره قوي، موجّه للخير مع وجود الإيمان، طالما أن إنجازه صحيح، يقع ضمن مفهوم مسؤولية التكليف القرآنية، ولكن عندما يضعف تفكير الإنسان، يقلّ إنتاجه. ومن الأسباب القوية للتقهقر في نوعية التفكير لهذا أو ذاك، الحرمان من حرية التعبير، فحرية التعبير تأتي كإشارة لفاعلية التفكير، بل ونمائه، وعندما يحرم الإنسان منها يتسرب التجمّد إلى تفكيره مع الأيام، وهذا

يعني خسران كفاءة شخص يحتاجه المجتمع للبناء والتطور. فماذا لو حُرِم المجتمع بأكمله من حرية التعبير؟ فذاك يعني إحداث ركود، وتجمّد فيه. وهنا، يفقد الناس الرؤية الصحيحة للأشياء، فيسهل للعدوّ التغلغل لبثّ شروره في الداخل. ومما لا شك فيه أن الملك الظاهر بيبرس كان مدركاً لأهمية التعبير عن الرأي في إحياء المجتمع وتحصينه قدر الإمكان من تسرب الأعداء للإفساد، ولا ننسى أنه نشأ كمملوك يباع ويشترى، وعرف ظلام القيد، وما يجلبه من عواقب في حياة الإنسان المحروم من الحرية، فحرص على عدم حرمان الناس من حقهم في التعبير عن الرأي في الإطار السليم. هذا، وإن ذلك يشكّل طريقاً للعدل، إذ أن حرية التعبير تعطي لأصحاب الكفاءات دورهم في البناء للدولة، كما أنها تمهّد الطريق لكل إنسان للإنجاز ضمن طاقاته وقدراته. هذا، وفي حالة وجود مشاكل ومظالم، فحريّة التعبير تنفع في إعطاء كل صاحب حقّ حقه. فيما يتعلّق بالملك الظاهر بيبرس، يروى بأنه خصص قاعة دعاها «دار العدل» بحيث كانت مهيئة لاستقبال أصحاب المظالم والشكاوى بحضوره الشخصي، ومن حوله «كبار القضاة وتعرض عليه القضايا فيشاور من حوله ويعطي كلمته في الموضوع وتكون الحكم الفصل الذي لا يُردّ»[1]. وذاك يعني أن بيبرس كان حاكماً مرناً، محبًّا للعدل، حريصاً على إقراره في المجتمع ككل. ومن هنا، شجّع الناس للإتيان لدار العدل تلك لينظر في مظالمهم، لا بشكل عابر، بل بشكل قائم على القانون كما يتمثل في مشاورته لرجال القضاء، ثم التوصّل إلى الرأي الصائب، والحكم القويم لإعادة الحقوق إلى أصحابها. وطبعاً، عندما يسود العدل في

---

(١) الأشتر....، المصدر السابق، ص ٨٠.

مجتمع ما، يسود الأمن والاستقرار به، وخصوصاً مع شعور الناس بأن حاكمهم واحد منهم، يرعاهم، كما يرعى أب الأسرة أبناءه، وهكذا كان الحال مع بيبرس، فيمكن تصوّره كأب روحي لأمته، وهذا مما قرّبه إلى الناس، فالتفوا حوله، كما يلتف الأبناء حول والدهم، فقوي ساعده بهم، وتمكّن من القيام بإنجازات عظيمة. إذن، فبكفاءة بيبرس، وعمق بصيرته، وفطنته، وإيمانه، تمكّن بيبرس من إقرار الوحدة العضوية في مجتمعه، والوحدة العضوية هامة جداً لتقوية الجبهة الداخلية للحاكم عندما تتعرض البلاد لعدوان خارجي، مثل العدوان الصليبي والمغولي في عهد بيبرس. وعادة، فمن أساليب الأعداء للقضّ من مضاجع دولة معتدى عليها من قبلهم، بثّ رجالهم في الداخل لإثارة المخاصمات وتمزيق المجتمع إلى فرق، ومنظمات، تتجه نحو محاربة بعضها البعض بدلاً من الوقوف في وجه الأعداء. وقد استخدم الصليبيون ذلك، وكان بيبرس يعلم فعلاً الدور الذي يقوم به الصليبيون في تشتيت الصف العربي الإسلامي، «وتشجيع كل إمارة على الأخرى وزرع الشقاق والنزاعات بين أحرار المسلمين، وتكريس التجزئة والانقسام ومنع قيام دولة موحدة تضم شتات العرب على بلادهم»[1]. وبمعرفته تلك عن الوضع، ركّز بيبرس على الوحدة لا في مجتمع مصر فحسب، بل في البلاد الإسلامية الأخرى، فبيبرس الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في مصر، وحّد مع الديار المصرية، أجزاء أخرى من البلاد العربية الإسلامية «امتدت إلى الأناضول شمالاً ومنابع النيل والمحيط الهندي جنوباً»[2]. ولكن كيف يمكن لحاكم

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٠.

إرساء قواعد الوحدة في المجتمع، إضافة لمجهوده في إقرار الحرية بحدود الالتزام، ثم العدل؟ هنا يدخل جانب العلم والثقافة في الصورة، فالعلم كقاعدة، هو أساس وجود الوعي بين الناس، والعلم أنواع، من أهمها المعرفة الروحية ثم باقي المعارف. وطبعاً، لعلماء الدين دور في ذلك، عليهم مثلاً أن يذكّروا الناس بأن الله تعالى يريد للأحياء العيش بمقتضى قوانين الحياة «التي وضعها لها، وأن تجاهد في سبيل هذه الحياة، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيّأ لها من مناعة طبيعية، أو مناعة اكتسابية، والدين هو أداة المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية!.. فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة، فإن الإسلام بلا مراء هو دين الصحة في كل شيء؛ فهو ذو صوت جهير في الدعوة إلى صحة الجسم، وصحة العقل، وصحة العقيدة!...»[1]. ومجمل الأمر في التوعية الروحية هي تذكير الناس بأن الإنسان خلق للعمل، للكفاح، للجهاد في كل مجال، وأن الصعاب لا بد وأن تنشأ بناء على ذلك، ولكن يمكن التصدّي للصعاب والمحن بالتفكير والإيمان، ومتى تمّ تخطّي الصعاب تلك بعقيدة، ومبدأ، حاز على النجاح المطلوب في الدنيا، والذي يشكّل بدوره الطريق لحسن الثواب في الآخرة. هذا، وعندما يثار وعي الناس بهذا الإطار، يدركون بأن التقاعس عن الجهاد عدوّ لهم، والتخاذل عن العمل خصم لهم، ومن هنا، يصلون إلى نقطة القناعة بأن العمل بكل صنوفه الإيجابية هو الميزان لسعادتهم. بالنسبة لبيبرس، فذاك هو ما أراد توطيده في المجتمع، وسخّر

(١) الحكيم، المصدر السابق، ص ٣٦.

العلماء والفقهاء من أجل ذلك، وبنى مؤسسات تعليمية، وهدفه التوعية الروحية أولاً، ثم الإنارة الفكرية في شتى العلوم ثانياً، بأرجاء العالم الإسلامي الذي تطلع بيبرس إلى وحدته، بل وقوّى نفوذه في هذا الصدد، إذ يروى أن الملك الظاهر بيبرس قوّى نفوذ مصر في البلاد الحجازية، «وصار يرمز لذلك النفوذ بالخطبة والسكة وإرسال الكسوة إلى الكعبة في كل عام... ولم يكتفِ بيبرس بالعناية بالحرمين الشريفين، بل أمر سنة ١٢٦١ م بإرسال الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس وجدّد مسجد إبراهيم الخليل عليه السلام... ولم يقتصر بيبرس على ذلك بل أخذ في بناء المساجد وتأسيس المدارس، ففي ربيع الآخر سنة (٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م) بدأ في بناء مدرسته المشهورة على أنقاض إحدى قطاعات القصر الكبير الفاطمي، وتمّ بناء هذه المدرسة سنة ٦٦٢ هـ... وتقرّب بيبرس إلى العلماء ورجال الدين، ويؤثر عنه أنه زار الإسكندرية أربع مرات... (قام بأثنائها بزيارة)... كبار المتصوفة من علمائها أمثال الشيخ القباري، والشيخ الشاطبي...»[1]. وقد أبرز بيبرس كفاءة سياسية في زيارته لمثل الشيخ القباري، والشيخ الشاطبي. فالأول منهما أخذ العلم «عن الشيخ الحسن الشاذلي مؤسس الطائفة الشاذلية»[2] وزيارته تعني احتراماً للشيخ ذاك، والاستفادة من علمه، ومن مركزه في إنارة وتوعية كل من يستطيع توعيته من الطائفة الشاذلية، للجهاد ضد الصليبيين والمغول معاً، بمعنى آخر، يدخل حب الجهاد إلى

---

(١) أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين والمماليك (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٩٥)، ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٩.

قلوب طائفة كبيرة من الناس بواسطة عالم جليل فيها. وفي الوقت نفسه، فزيارته للشيخ الشاطبي مهمة باعتقادنا أيضاً، وذلك لأن الشيخ ذاك كان «أستاذاً في المدرسة الفاضلية وألّف كتباً كثيرة في تفسير القرآن وقراءاته السبع»[1]. إن العالم بالقرآن الكريم وتفسيره خير إنسان في التوعية للجهاد بأصوله وقواعده القرآنية، ومن هنا، فعالم مثل الشيخ الشاطبي يفيد جداً في إنارة الناس وتوجيههم نحو التعاون مع السلطة في إعداد العدة الحربية للجهاد.

بناء على كل ما تقدم ذكره، نرى أن جهود بيبرس في بناء جبهة قوية في الداخل، لوضع السدود أمام أي تدخل من الأعداء، لتفتيت المجتمع إلى شعب وفرق، تجسّد في إقرار الحرية بحدود الالتزام لا الفوضى، وتثبيت العدل، وتشجيع العلم والعلماء وتسخير العلماء وأهل الفكر من أجل إنارة الناس، وتحفيزهم على الجهاد، ليقدموا إليه بقلوب سليمة تصبو إما إلى الفوز أو إلى الشهادة في سبيل الله تعالى. وذلك كله ساهم في بناء قوة حربية مستنيرة أيام بيبرس، والفرق كبير عادة بين الجيش الذي يدافع عن علم ومبدأ وأخلاق، وبين الجيش الذي يحارب لأهداف عدوانية دون معرفة بأن الأمم لا يجوز أن تحيد عن القوانين الثابتة في الحق والعدل في الحياة. فالجيش الأول يجاهد من أجل إرساء قواعد الحق، بعد العبث الذي خلّفه الجيش الثاني في نشر الباطل، والظلم، والعدوان. وهذا هو الفارق بالضبط بين جيش بيبرس، وبين الجيوش الصليبية والمغولية، وذلك يبيّن مظهراً هاماً من مظاهر كفاءة بيبرس الحربية والسياسية، التي كوّنت عاملاً في حلقة من الظفر ضد المغول والصليبيين في أيامه.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٩.

٢ ـ وضع سياسة خارجية قوية للتفاعل مع الداخلية بالانطلاقة للجهاد

حتى الآن، لقد تمّ التركيز على أهمية قوة الجبهة الداخلية في تحقيق النصر في حالة التعرّض للعدوان، مع إظهار دور بيبرس في هذا الصدد. ولكن كما أن بناء الجبهة الداخلية يتم بقواعد وأسس مذكورة أعلاه، فكذلك الحال بالنسبة للسياسة الخارجية باعتقادنا. في حالة تعرّض أمة لعدوان كبير هدفه هو محق دينها أولاً، وسحق شعوبها ثانياً عن حقد، وطمع، وحب بالاستئثار بالموارد والأرض، وأشياء من هذا القبيل ـ ثم المضي من الأمة المعتدى عليها في حلقات من الجهاد المتواصل حتى الوصول إلى نقطة تستلزم الجهاد بقوة، وإن فعلت ذلك، تكون قد قاربت على الخلاص ـ فيلزم عندها إعطاء أهمية خاصة للسياسة الخارجية، وخصوصاً مع الاطمئنان بحسن الأوضاع في الداخل. طبعاً، التركيز هنا يكون منصباً على المعتدين، الذين أنشأوا دولاً لهم على حساب ظلم وتشريد السكان الأصليين كحاكم مثل بيبرس، فدوره بالخطوة الأولى، هو الاستطلاع عن أخبار دول الاحتلال بكل دقائقها: سياستهم، أحوالهم الاجتماعية والثقافية والروحية، اقتصادهم، قوتهم العسكرية، مصادرها، لأن في تلك المعلومات معرفة شاملة عن مجتمعات الدول المحتلّة، وبالتالي، اختيار الأسلوب الأنفع للمجابهة العسكرية في وقتها المطلوب. صحيح أن محور المجابهة هو واحد عادة، ولكن الأساليب شتى في المواجهة، فما يصلح لموقف قد لا يصلح لموقف آخر. وبكل تأكيد، فإن بيبرس أبدى حذاقة في معرفة أحوال الدول المعتدية بوسائل استخباراته القوية، ولكن لم يتوقف عند تلك النقطة، بل

تعدّاها إلى نقطة أوسع، وهي نقطة التحالفات بين المعتدين ومؤيديهم، وذاك أمر هام للغاية، عندما تعتدي أمم مثل الصليبيين على المسلمين، لا بدّ وأن يكون لهم مساندين، وربما حتى مساعدين لهم على الاحتلال، وسواء هذا أم ذاك، فمن الطبيعي أن يلجأ المعتدون لإقامة تحالفات مع من ساندوهم، أو ساعدوهم على الاحتلال، مالياً أو عسكرياً أو معنوياً، وقد تسري تلك التحالفات لزمن. ولكن بما أن الحركة الزمنية مستمرة، وتحصل مستجدّات ومستجدات أثناء سيرها، فلا بدّ، إذن، من حدوث تغييرات في الساحات المعنية بالأمر. فمثلاً لو قلنا عن وجود تحالف صليبي بيزنطي وذاك صحيح، سرى بمفعوله القوي لفترة ازدهار الصليبيين، ثم ضعف مع استيقاظ المسلمين واسترداد كثير من مواقعهم المحتلة، فالنظرة إلى التحالف ذاك وقت الضعف ليست كالنظرة إليه أيام القوة، إذ مع استيقاظ المتضررين ونجاحهم في إضعاف العدوّ المغتصب، فقد تعيد الدولة التي تحالف الأعداء معها النظر بالأشياء، مع تغيّر في الموازين، وهنا تكمن الفرصة الذهبية لحاكم قوي يسعى لإعادة العزّ للإسلام، والحق والكرامة للمسلمين. فقد يدخل في مهادنة مع الطرف الذي تحالف مع أعدائه لحماية ظهره، عندما يبدأ بعمليات عسكرية ضد الأعداء، وذلك طبعاً يضعه في مركز قوي، قوة بالداخل، قوة في الجيش وتدريبه وتنظيمه وآليته، ثم قوة مع مهادنة لطرف كان يعتمد عليه الأعداء بكثافة، ولو حتى أن الهدنة مؤقتة. بالنسبة للظاهر بيبرس، فمع المتغيرات في صورة الأحداث ما بين نقطة الاحتلال الصليبي، وعهده، فلم يكن من الصعب عليه التقدم لمهادنة الدولة البيزنطية، بل والتحالف معها «وتبادل السفارات والهدايا مع أمبراطورها

ميخائيل الثامن»[1]. وبذلك حيّد جانباً مهماً للتقدم بجيوشه لمحاربة الصليبيين والتتار، ولكن عندما كان بيبرس يعلم بجواز نقض تحالفه مع البيزنطيين إن عادوا لتغيير سياستهم نحوه، للتآزر الكلي مع أعدائه، فعندها قد يضرب وعليه أن يحتاط. والسياسي الماهر هو الذي يحسب حسابات كل شيء، يهادن ولكن مع الإلمام بكل ما يحصل على ساحة الذين هادنهم، أو إقامة علاقات وديّة مع دولة أخرى، كإجراء وقائي لمتغيرات يمكن وقوعها. وهذا ما فعله بيبرس، إذ أنه بعد مهادنة البيزنطيين، اتجه نحو إقامة علاقات طيبة مع رؤساء صقلية التي تحتل مركزاً هاماً في البحر الأبيض المتوسط، وذلك من أجل انفراده بالصليبيين، عند الجهاد، من دون تلقّيهم عون بيزنطي[2]. إذن، فالحاكم الحاذق، يدرس كل الإمكانيات اللازمة، ويعمل بدبلوماسية، لإفساح المجال له للتركيز على عدوّه، دون تدخلات خارجية لصالح الأعداء.

هذا من جهة، أما من جهة أخرى، فقد تتجلى كفاءة الحاكم ذاك في تشتيت الوحدة القائمة في صفّ الأعداء، وعليه، فلو أمسك، قسماً منهم، تكون المجابهة أخفّ مما لو كانت تشمل جميع قوى الأعداء متحّدة. بالنسبة لبيبرس، فمن الواضح أنه استخدم ذلك الأسلوب، إذ يروى أنه عمد في مرحلة ما إلى مهادنة «بعض القوى الصليبية كفرسان الأسبتارية وأمير بيروت مما أطلق يده في مهاجمة القوى الصليبية الأخرى»[3]. وتجدر الإشارة هنا

---

(١) الأشتر. . . .، المصدر السابق، ص ٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤١.

إلى أن وقت عقد الهدنة لبيبرس مع الأعداء «تحدد مدتها بعشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات»[1]. وذاك التحديد يعكس على صدق وأمانة بيبرس في المواثيق ودقته في التعامل، وذاك أمر هام، إذ أن الدقة في المعاملات الرسمية أو غيرها ترمز لوجود شخص قوي بإيمانه، قادر على ضبط الأمور، وحازم فيها، إذ لا يترك الساحة للعبث لإنزال الضرر بالإسلام والمسلمين، بل يأخذ مواقف قوية، في ظل الالتزام بالتوحيد. ومن هنا، نفهم لِمَ نال بيبرس احتراماً خاصاً، ولِمَ كان يحسب كل حساب تجاهه من جانب الأعداء.

هذا، وإضافة إلى كفاءة بيبرس في المهادنة بمناحيها المتعددة، والمصادقة مع دول معينة، بهدف إضعاف العدو الذي يحاربه، فمن سياساته الخارجية أيضاً الاستفادة من التناقضات التي كانت تتواجد في صفوف الأعداء أحياناً. ففيما يتعلّق بالمغول مثلاً، فقد تقدم بيبرس للاستفادة من تناقضات نشأت بين قسمي المغول: مغول فارس ثم مغول القفجاق. فتاريخياً، فمغول فارس هم الذين قاموا بالهجوم الشرس على البلاد العربية الإسلامية، وخرّبوا ما خرّبوه في مدينة بغداد، مع قتلهم لخليفة المسلمين هناك، أما مغول القفجاق، فقد اتخذوا «سياسة مغايرة تماماً فاعتنقوا الإسلام وغضبوا لما فعله هولاكو»[2]. وهذا شكّل فرصة لبيبرس لإنشاء جسور العلاقات بينه وبين القفجاق الذين كان يتزعّمهم شخص اسمه بركة خان، وقد أرسل هذا الأخير وفوداً للقاهرة عام ١٢٦٣ م، لتقديم الشكر لبيبرس على ما بذله من جهد

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤١.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤٨ ـ ٤٩.

ضدّ مغول فارس. وقد لاقى ذلك حسن استجابة من بيبرس، فبعث بهدايا ثمينة لبركة خان، مع تحريضه على مقاتلة هولاكو وجيشه، وتوّجت تلك العلاقات الودية بزواج بيبرس من ابنة بركة خان ذاك. وبأسلوبه الكفوء ذاك «ضمن بيبرس عدم تحالف كل المغول ضده، كما ضمن انشغال هولاكو وقومه بعدوّ آخر مما يتيح لبيبرس فرصة إعداد جيوشه وتنظيم أموره بدقة وثقة وسعة وقت»[١]. إذن، فبيبرس كان ضليعاً بالتدبير السياسي في سياساته الداخلية والخارجية معاً، وذاك سهّل له مهمة النجاح غالباً، على الساحتين: الصليبية والمغولية. وعند هذه النقطة، نرى ضرورة للتقدم بجولة سريعة عن مسيرة بيبرس الجهادية ضد الصليبيين والتتار، وتلك الجولة سوف تقدّم بالإطار «التقريري» بعد الإطار «التحليلي» الذي خضنا به في هذا الفصل، على أساس أن الأبعاد التحليلية توضّح جهاد بيبرس، فتقيّم أعماله عندها في البوتقة الصحيحة، بوتقة البطولة.

٣- وصف لإنجازات بيبرس العسكرية ضد الصليبيين والتتار

أ ـ جهاده ضد الصليبيين

في عام (١٢٦٣ م)، وبعد التدبيرات اللازمة عسكرياً، انطلق بيبرس بجنده حيث سلك الطريق الساحلي في اتجاه بلاد الشام، وكان الصليبيون ما زالوا عندئذٍ محتلّين لأنطاكية وطرابلس الشام، إضافة إلى مناطق من ساحل فلسطين[٢].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٦ ـ ٣٧.

هذا، وعند اقترابه من مدينة عكا، وردت إليه وفود من الصليبيين تعرض عليه الصلح المقترن بإطلاق سراح أسرى المسلمين، بيد أن بيبرس رفض عرضهم، حيث قام بعدد من الهجمات الاستكشافية، بهدف التوصّل لمعرفة جوانب الضعف والقوة لدى الصليبيين. وأغار جيشه على مدينة عكا، وغنم منها ما غنم، مجبراً جيشها الصليبي على الانكفاء داخل الأسوار. هذا، وبما أن مقصد بيبرس الأساسي كان استكشاف تلك الديار وأحوالها، وبما أنه لم يكن على استعداد للقيام بمغامرة هجومية على عكا، «فقد غادر أسوارها وأنهى جولته بتحرير حصن الكرك وإعادة بنائه وتقويته»[١]. إذن، بالإطار الاستطلاعي لحملته تلك، فقد نجح بيبرس من زاوية فرض المهابة العسكرية الإسلامية فرضاً.

وإضافة لما تقدّم، ففي أوائل عام (١٢٦٥ م) خرج بيبرس بجيشه من مصر إلى بلاد الشام، حيث قرّر، مع أمور أخرى، التقدم بهجوم على الصليبيين لتحرير قيسارية، التي كانت تقف «شوكة في الطريق بين مصر والشام»[٢]. ويقال بأن بيبرس ساهم بذاته في عملية هدم أسوار قيسارية تلك بل واقتحامها، وعندما تحصّن الفرنج بقلعة تلك المدينة، هاجمهم جيش بيبرس، وحاصرهم لمدة أسبوع. وبعد ذلك تسلّق الجند الأسوار فدخلوا إلى القلعة من جميع جهاتها، وكان النصر المؤزر إلى جانب المسلمين، حيث هدّم بيبرس القلعة تلك، مزيلاً إياها من طريقه[٣]. وعلى إثر ذلك، توجّه بيبرس نحو قلعة أرسوف بصورة

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٨.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٩.

مفاجئة، وفرض حصاراً عليها، وجاهد هو بنفسه ببسالة، لدرجة القول «إنه أطلق ثلاثمائة سهم في يوم واحد على الفرنجة»[١]. وذلك يظهر بسالته، وقوته في الرمي. وطبعاً، بما أنه هو قائد الجيش، وقائد الأمة، فلا بدّ من انعكاس بسالته على الجند، فالقائد عادة هو النموذج للجند، إن أبدى قوة واستبسالاً، يبدي هؤلاء قوة مثله، وإن أظهر عجزاً وضعفاً، ينعكس ذلك سلباً عليهم، فينهار الجيش كله. هذا، ويقال بأن النساء شاركن في الحصار والقتال حول أرسوف «فقمن بجرّ المجانيق وسقاية الماء وإسعاف الجرحى، وتمّ تحرير أرسوف ودخلتها جيوش بيبرس ظافرة منتصرة»[٢].

بعد أرسوف، عاد بيبرس إلى مدينة القاهرة، وطبعاً، ذاك أمر طبيعي، فهو الحاكم الفعلي في مصر، وعليه دوماً تفقّد الأحوال للتأكد من عدم حدوث أي ارتباك أو تضعضع في الداخل، حيث أنه كان قد عمل المستحيل من أجل ذلك، كما شرحنا مسبقاً. ولكن ما أن يطمئن على الأوضاع، ومسارها كما هو متطلّب، حتى يعود مرة أخرى للجهاد. إذ بعد أقلّ من عام، «خرج بيبرس في شهر أيار من سنة (١٢٦٥ م) للجهاد، وفي البداية تولّى أمراء جنده مسألة القيام بحملات استكشافية على المواقع الصليبية»[٣].

وبعد ذلك، تمّ تجميع كلّي لجند بيبرس أمام صفد، حيث ضرب حصاراً متيناً من حولها، مع استقدامه للمجانيق، وإقامة مستشفى متنقل من أجل إسعاف الجرحى من جيش المسلمين.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٩ ـ ٤٠.

وإزاء ذاك الحصار المحكم، اضطر الجيش الصليبي للاستسلام، فمنحهم بيبرس الأمان، ولكن بشرط تنحّيهم عن تخريب أي شيء في القلعة، وعدم أخذهم لمال أو سلاح معهم. ويروى أنه عند «خروجهم من القلعة فتّشهم جند السلطان فوجدوا أنهم خالفوا شروط الأمان ولهذا أمر بيبرس بقتلهم»[1]. وعلى إثر ذلك، استدعى بيبرس جزءاً من سكان مدينة دمشق لكي يقيموا في صفد بعد تحريرها، ثم واصل الزحف مع جنده، حتى التمكّن من الاستيلاء على بعض المناطق المصدّرة بالرملة من حيث الأهمية[2]. وبتلك الإنجازات العظيمة، ذهب بيبرس مرة أخرى إلى القاهرة لتفقد الأحوال هناك، ثم عاد للجهاد في شهر آذار من عام (١٢٦٧ م)، ويبدو أن لانتصاراته السابقة، فقد فرض مهابته الحربية في الأجواء، فخاف الصليبيون في بعض المناطق، مرسلين له الهدايا إضافة إلى الوفود لاستعطافه بعرض الهدنة، فوافق. بيد أنه في شهر شباط (١٢٦٨ م) عاد بيبرس لجولة قتالية جديدة في منطقة يافا التي حرّرها بعد حصار، ثم مضى لمحاصرة حصن الشقيف أرنون، مستخدماً الحيلة عند فتحه، «وذلك بأن أوقع الشقاق بين فصائل الصليبيين عن طريق رسائل بعث بها إليهم على لسان بعض القوى الصليبية»[3].

ثم استأنف بيبرس مسيرته الجهادية نحو الشمال، فمرّ بمدينتيّ حمص وحماة، وسط مجيء وفود صليبية لتقديم هدايا إليه مع طلب في مهادنته، ولكن دون أن يعرف أحد من هؤلاء عن وجهة

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٠.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤١.
(٣) المصدر نفسه، ص ٤١ ـ ٤٢.

بيبرس الحقيقية، «إلى أن أحدقت جيوشه بمدينة أنطاكية المعقل الهامّ للصليبيين في بلاد الشام، وضربت حولها حصاراً محكماً لمدة ثلاثة أيام تبعه هجوم كاسح على أسوارها أدّى إلى انهيار خطوط دفاعها واستسلام حاميتها»[١].

هذا ولأهمية أنطاكية لدى الصليبيين، فقد شكّل تحريرها أضخم حدث تاريخي منذ تحرير القدس من قبل صلاح الدين الأيوبي، وقد أدى تحريرها لإشاعة الفرحة في أفئدة المسلمين. ولكن بالمقابل، إشاعة الحزن والخوف لدى الصليبيين، لأن سقوط أنطاكية بيدّ المسلمين كان بمثابة كارثة لهم عسكرياً، وسياسياً، ومعنوياً، حيث كانوا قد احتلّوها لمدة مائة وسبعين عاماً[٢]. إذن، هنا ضرب الملك الظاهر بيبرس ضربة كبرى في قلب الاحتلال الصليبي، في معركة فاصلة، وطبعاً، مثل تلك الضربة، تؤدي إلى الزيادة في الضعف العسكري والمعنوي لدى الصليبيين، فربما كانوا يرون أنطاكية كوطن لهم بعد ولادة أجيال وأجيال فيها، وفي مثل تلك الأحوال، فمن المتوقع إما الإسراع لاسترضاء بيبرس، أو الاستسلام له، أو الفرار، وكله من شأنه إظهار صورة التقهقر الصليبي المستمر في المنظار السليم، مقابل التقدّم الذي يحرزه الملك الظاهر بيبرس ببطولاته.

مع الضعف الصليبي المتزايد، إثر فتح أنطاكية، تمكّن بيبرس مع جنده من «تحرير كثير من الحصون وعقد هدنة مع صاحب عكا وصاحب حيفا وصيدا بشروط مرضية... له»[٣]. وبعد تلك

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢ ـ ٤٣.
(٣) المصدر نفسه، ص ٤٣.

الانتصارات والأحداث عاد بيبرس لمصر لبعض الوقت كالعادة، ثم مضى للجهاد في جولة أخرى عام (١٢٦٩ م) في شهر تشرين الأول، وذلك بعد علمه بإنشاء تحالف بين الصليبيين والتتار، إضافة لوصول نجدات للفرنج من أوروبا. في تلك الأثناء هادن بيبرس الإسماعيلية، متوجهاً كلية لقتال المغول إضافة إلى الفرنج. «وحينما تناهى إليه خروج لويس التاسع ملك فرنسا في حملة صليبية جديدة قفل راجعاً إلى القاهرة واهتم ببناء السفن وتقوية السواحل، ولمّا علم بنزول لويس التاسع في تونس بذل كل ما في وسعه لمساعدة صاحب تونس»[١]. بيد أنه لمّا تلقّى أنباء مقتل لويس التاسع ذاك، رجع الملك الظاهر بيبرس إلى البلاد الشامية، وهو موقن تماماً بأن ما تبقى من خطر بالمعنى الكبير، تجسّد في إمارة طرابلس. وعليه، عمد للتوجه لإضعاف مركز تلك المدينة «ومهاجمتها باستمرار والاستيلاء على المواقع حولها كما فعل حينما حرّر حصن الأكراد المنيع وطرد حاميته من الفرسان الأسبتارية»[٢]. وعلى إثر ذلك، استولى الملك الظاهر بيبرس على حصن عكار، وذلك في شهر نيسان من عام (١٢٧١ م) وقد همّ وقتئذٍ «بالإطباق على طرابلس لتحريرها وإنهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام، ولكن وصول ملك أنكلترا إدوارد الأول إلى عكا مع عدة مئات من الفرسان بقصد الحج أثار مخاوف بيبرس فعقد صلحاً مع بوهيمند صاحب طرابلس لمدة عشر سنين»[٣]. وتلك كانت خاتمة جهاد الملك الظاهر بيبرس ضد الفرنج[٤]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن ذلك الجهاد كان عظيماً بكل

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٤.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤ ـ ٤٥.
(٣) المصدر نفسه، ص ٤٥.
(٤) المصدر نفسه، ص ٤٦.

معنى الكلمة، بطل يهادن عند تطلّب الموقف للمهادنة من جهة. . ثم يذهب للقتال في جهات عديدة، حتى ما أن يصبح في مركز متمكّن عسكرياً، يقوم بمعركة فاصلة لاسترجاع أنطاكية، ويسترجعها فعلاً. وبالرغم من أن وصول الملك إدوارد أثار مخاوف بيبرس، فاضطر لعقد صلح مع صاحب طرابلس، بوهيمند لمدة عشر سنين، إلا أن تحريره لأنطاكية سابقاً شكّل بداية النهاية للصليبيين، ومعنى ذلك بأنه لم يعد الوقت لسقوطهم طويلاً مع توفر الجهاد، الذي تأجج في عصر بيبرس. ويروى بأن سلاطين المماليك واصلوا جهادهم ضد الصليبيين حتى تمكنوا من استعادة الأراضي من الفرنج عام (١٢٩١ م). ومع أن لكل من جاهد بعد بيبرس فضل في استرجاع العزّ للإسلام، والكرامة للمسلمين، بعد إعادة أراضيهم وحقوقهم المشروعة لهم؛ إلاّ أن الاعتبار الأكبر في هذا المضمار يعطى للملك الظاهر بيبرس، الذي انعكس توطيده للأحوال على من جاء بعده. فالحروب الطويلة المدى تتطلب بين حين وحين فترة تأسيسية بوجود قاعدة صلبة، فالنجاح في كل مجال، بما في ذلك الحربي، يتطلب الأساس المتين، والقاعدة القوية.

ب ـ جهاده ضد التتار

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه كما أبرز بيبرس كفاءة هائلة في حربه ضد الصليبيين، فكذلك كان الحال في جهاده ضد المغول. بالنسبة لهؤلاء، فبعد «معركة عين جالوت» التي تحدّثنا سابقاً عنها، كان المغول بقيادة هولاكو قد أصيبوا بصدمة على إثر النصر الحاسم للمسلمين، بيد أنهم، مع ذلك، بقوا يتطلّعون إلى البلاد الشامية بنظرة من الطمع والرغبة لاحتلالها. في وقت كان بيبرس

فيه متيقظاً لأطماعهم ويلاحق تحركاتهم باستخباراته. أما والوضع كذلك، حاول التتار احتلال المدينة المسماة بـ«البيرة» مدينة حصينة تقع على نهر الفرات، وتمثل مركزاً مهماً بين كل من العراق وبلاد الشام، وتمت المحاولة سنة (١٢٦٥ م)، فبعث الملك الظاهر بيبرس نجدات متواصلة لها، ثم تبع ذلك بذهابه هو بغية فكّ الحصار عنها، ولكن قبل بلوغه للمكان، وردته أنباء فرار المغول، وقد غرقت سفنهم في نهر الفرات، بيد أنه بكفاءة الملك الظاهر بيبرس ذاك، وعمق بصيرته، وحذّره دوماً من الطوارىء أصدر أمراً بوجوب تحصين تلك المدينة، وتزويدها بالأسلحة والمؤونة اللازمة لمقاومة أي محاولات أخرى لمحاصرتها[١]. ومما لا ريب فيه أن ذلك انتصار عظيم لبيبرس ضد المغول بعد «معركة عين جالوت»، التي حارب فيها كقائد تحت لواء قطز، ولكن ماذا حصل بعد هزيمة المغول في البيرة؟

في السنة ذاتها وهي (١٢٦٥ م)، مات هولاكو، حيث خلفه ابن له يسمى بـ«أبغا»، من الفئة المسيحية من النساطرة، وكان أبغا ذاك متزوجاً «من ابنة الأمبراطور فقوي بذلك تحالفه مع بيزنطة وحرص على تمتين صلاته بالبابوية...»[٢] وذلك لكي يضمن حصاراً محكماً للبلاد العربية الإسلامية لو عاود الهجوم عليها، بعد إعادة تنظيم لقواته. هذا، وإن إعادة تنظيم القوات ليس أمراً سهلاً، لأنه يحتاج إلى إصلاحات في السياسة الداخلية للبلد، وذلك لن يتوفر لإبغا، إلا إن هادن بيبرس لمدة لإنجاز الغرض، ثم الانقضاض مرة أخرى عليه. وهكذا يروي لنا التاريخ بأنه في بداية

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٠.
(٢) المصدر نفسه، ص ٥١.

حكمه، قام أبغا بمحاولة لعقد صلح مع بيبرس، لكن الأخير رفض طلبه، بل «وأرسل يهدّد أبغا بأنه وراءه بالمطالبة حتى ينتزع منه كل البلاد التي احتلها المغول»[١]. إزاء ذلك الوضع، والموقف الصامد الصلب لبيبرس، اتفق المغول مع الفرنجة للقيام بعدوان مشترك ضد المسلمين لاحقاً. ثم قام المغول أولئك بالإغارة على الساجور، قرب مدينة حلب، إلاّ أن بيبرس بعث إليهم بجيش تحت لواء الأمير علاء الدين البُندقدار، فألحق هزيمة بهم، واضطروا للتراجع عن البلاد الشامية[٢].

وبالرغم من ذلك، فلم يتعظ «أبغا» المغولي، بل في سنة (١٢٧١ م) عاود الهجوم على العرب والمسلمين، فأغار على عينتاب وحارم ووصل الظاهر بجيوشه فسحق جيوش المغول، وكان الصليبيون قد هاجموا قاقون للتخفيف من هجوم المسلمين على المغول، فالتفت إليهم بيبرس وهزمهم وأغار على عكا وضيّق على الصليبيين فيها مما اضطرهم إلى طلب الصلح»[٣].

بتلك الانتصارت للجيش العربي الإسلامي، خشي أبغا من تدهور أكبر في معسكره، فقرّر القيام بعمل عسكري مرة أخرى على «البيرة» بموقعها الاستراتيجي، عام (١٢٧٢ م)، فبعث بحملة كبرى لتلك المدينة، «وحاصرتها جيوش المغول ونصبت حولها المجانيق، ولكن بيبرس زحف بقواته بسرعة وعبر أمام جيوشه نهر الفرات إلى الضفة الشرقية وقاد المعركة بنفسه حتى تمّ له النصر وقتل وأسر أعداداً كبيرة من المغول»[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥١.
(٢) المصدر نفسه، ص ٥١ ـ ٥٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥٢.
(٤) المصدر نفسه، ص ٥٢ ـ ٥٣.

وبذلك تعقّد الموقف أمام أبغا، فرأى تقوية معسكره المهتزّ بإقامة تحالف مع سلاجقة الروم إضافة إلى مملكة أرمينيا، وفعل ذلك. وعليه، اضطر بيبرس للزحف نحو بلاد سلاجقة الروم عام (١٢٧٧ م) حيث تجابه عسكرياً مع الجيش المغولي المتحالف مع هؤلاء السلاجقة، فهزمه هزيمة ساحقة، وكانت تلك آخر معركة للملك الظاهر بيبرس مع المغول[١]. على أنه فيما يختصّ بأرمينيا الصغرى المتحالفة مع أبغا ضد بيبرس، فقد كانت تحيك له المؤامرات، أمر دعا بيبرس لتوجيه جيوشه سنة (١٢٦٤ م) من مدينتي حمص وحماة نحوهم «فأنزلوا هزيمة منكرة بالأرمن»[٢]. وإضافة إلى ذلك كله، يروى أنه في سنة (١٢٦٦ م)، «قصد الملك هيثوم مدينة تبريز يستنجد بأبغا فأرسل بيبرس جيوشه بقيادة الأمير قلاوون فهزموا الأرمن وقتلوا ابن الملك هيثوم وأسروا ابنه الآخر، ودمّروا المدن الأرمينية بما فيها العاصمة سيس واقتادوا أمامهم أربعين ألف أسير وأشياء لا تحصى من الغنائم، ولم تُفِق مملكة أرمينيا من هذه الضربة مطلقاً ولم يفدها تحالفها مع المغول ولا مع الصليبيين»[٣].

بالوصول إلى هذه النقطة، لا بدّ وأن نكرّر مرة أخرى بأن بيبرس أظهر بطولة في جهاده العسكري. فعادة يكون الموقف العسكري متأزماً لأي حاكم لو واجه عدواً واحداً فقط، ولكن كيف بحاكم وهو يواجه عدوّين جوهريين بتحالفات ضدّه، ويتمكن من الظفر في كل مجال عسكري إجمالاً!! يضرب ضربات فاصلة مع

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٥٣ ـ ٥٤.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥٤.

الصليبيين ويقض من مضاجعهم. . ويضرب ضربات حاسمة مع المغول، ويقض من مضاجعهم أيضاً. . ثم بعد هذا وذاك، ينقضّ على المتحالفين مع أعدائه ويلحق بهم هزائم كبرى. ولولا حكمته في السياسة الداخلية، وكفاءته في السياسة الخارجية، إضافة إلى إيمانه العميق بالنصر، وعمق بصيرته، وتحذّره المستمر من الأعداء، وتنبهه إلى جميع تحركاتهم، ومستجداتهم، لما ظفر بيبرس بهذا الشكل في الأفق العسكري. فالظفر من جانبه عسكرياً، اعتمد على حسن رؤية سياسية ممتزجة بتعقل، وإيمان، وحكمة، وعلم، وتلك كلها من سمات التميّز.

الخاتمة

السلطة المركزية وبيت المقدس

١ ـ معنى «الوحدة» في الإطارين المعنوي والجغرافي

بعد تلك الجولة التي تناولنا فيها حياة الملك الظاهر بيبرس، وإنجازاته الحربية القائمة على سياسة قويمة حكيمة في الداخل والخارج، نرى الآن ضرورة الاستطراد بموضوع سياسة بيبرس بكل أطرها، لأنها تلقي الأضواء على إنجازاته وتضعه في مكانته التاريخية الصحيحة. إن محور سياسة بيبرس هي «الوحدة»، والوحدة كتعبير تعني تجمّع التطلعات والأهداف نحو محور واحد، وتشتمل بالنسبة للتكوين الاجتماعي على نوعين، الوحدة المعنوية، والوحدة القائمة على حدود جغرافية معينة. في النوع الأول، فالوحدة تكمن في المشاعر المشتركة انطلاقاً من الجامع الروحي واللغوي، هنا يشعر كل فرد في الأمة بأن ما يصيب جزءاً من تلك الأمة بأضرار يتأثر به الآخر، على أساس أن الأمة تمثّل عائلته الكبيرة. ولكن في النوع الثاني، فالوحدة تمتدّ إلى الجامع الجغرافي القائم بجذوره على وحدة المشاعر، والقلوب، والتطلعات، والأهداف، والفكرة الرئيسية هنا هي أن الوحدة المعنوية تشكّل القاعدة المتينة للوحدة الجغرافية، هذا مع العلم بأن القرآن الكريم هو أساس تلك الوحدة بتعاليمه ولغته. والقرآن كما

ورد في كتاب «مرآة الإسلام» لطه حسين، هو «قوام حياة المسلمين يرضون به ربهم حين يأتون ما أمر به ويجتنبون ما نهى عنه وحين يقيمون صلاتهم مجتمعين أو متفرّقين يقرؤونه أو يسمعونه متعبّدين بقراءته أو سماعه وحين يستنبطون منه العلم ويلتمسون فيه الروعة والجمال. . . »[1]. فالقرآن هو مصدر الجمع بين المسلمين على أساس أنه يضع القواعد الكفيلة للتنظيم الاجتماعي القويم القائم على المعرفة الحقيقية والمحبة، وهو محور الدين الإسلامي، الذي استرعى سمع الكثيرين من أبناء البشرية، فاعتنقوه لأنه كما جاء في كتاب «الصدّيق أبو بكر» لمحمد حسين هيكل «يصوّر مَثَل الإنسانية الأعلى، ويسمو بالحرية وبالكرامة الإنسانية إلى أرفع الذُّرى. فهو لا يجعل للناس إلٰهاً غير الله، هم عباده وحده جلّ شأنه، لا يملك لهم أحد غيره نفعاً ولا ضراً، ولا مثوبة ولا عقاباً، وما يصيبهم في هذه الحياة أو يصيبون فيها يجزيهم الله عنه الجزاء الأوفى. فليعملوا إذن مطمئنين إلى حريتهم، لا يريدون إلاّ وجهه. فإذا أصابهم ظالم بمكروه فالويل لظالمهم من ربه، وإذا رأوا منكراً فليزيلوه، وليعلموا أن الله من ورائهم محيط»[2]. استجاب الكثيرون للإسلام، إذن، لأنه يحمل في ثناياه طريق السعادة للبشرية، وسعادة الإنسان مرتبطة بحريته التي تطلق آفاق عقله بتفكير سليم، لو كان حكيماً. والذي يفكّر ويعمل بالإطار السليم، يحظى على كرامته الإنسانية، ويتصرّف في

---

(١) طه حسين، **إسلاميات: مرآة الإسلام** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤)، ص ٨٩.

(٢) محمد حسين هيكل، **الصدّيق أبو بكر** (القاهرة: دار المعارف، لا. ت.)، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

بوتقة من التهذيب والمعرفة التامة بحدوده كبشر، فيتطلع دوماً إلى الله تعالى، ملتمساً العون منه، حتى يؤدي رسالته في التنظيم للمجتمع على أسس مبنيّة على التوحيد والعدل والمساواة علماً أنه من يحسن العمل لدنياه، ينال حسن الثواب في الآخرة. فالإنسان خُلِق للعمل، ويحاسب بموجب أعماله من الله عزّ وجلّ، هذا وبما أن نواميس الكون قائمة على الحقّ والعدل، فلو أصيب فرد أو أمّة بظلم، فعليهم أن يجاهدوا بهدى ربهم، لأن الظلم شرّ فظيع، يعين الله تعالى عباده المؤمنين في تخطّيه.

٢ ـ الملك الظاهر بيبرس في امتثاله للدين القيّم

بإبقاء تلك المعلومات في ذهننا، وبالعودة إلى بيبرس، نرى أنه سلك في سياساته إجمالاً، واعتمد على التعاليم الإسلامية بعد تولّيه للسلطنة. فركّز على حرية التفكير، التي حُرِم منها كمملوك في فترة من حياته، لأن حرية العقل هي وسيلة النظر في الأشياء، والتدبّر فيها، والموازنة بينها، وهي الباعث إلى العلم والاكتشاف. إذ كما يقول هيكل، في المصدر المذكور أعلاه «فإذا تحرّر العقل استطاع بقوة تفكيره أن يتحكم ولو بقدر في قوى الطبيعة وأن يسخّرها لأغراض الإنسان، وأن يفيد بذلك من هذا التحكّم جديداً لرقيّه، وإذا جمد العقل وقف تقدم الإنسانية...»[(١)]. هذا، وبتركيز بيبرس على العلم، فقد اهتم بمنشآته، أو وسائل نقله للمجتمع بكل فروعه، مع اهتمام خاص بالمعرفة الروحية. ومن أبرز منشآته في مجال العلم، المدرسة الظاهرية، التي أُنجِزت سنة

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٤٠.

(١٢٦٤ م)، وقد تم افتتاحها في احتفال ضخم، وقد عُيّن لها أفضل الأساتذة. «وألحقت بها مكتبة جليلة القيمة، كما بني إلى جانبها دار لتعليم الأيتام»[١]. والشيء الملفت للنظر هنا هو أن افتتاح المدرسة الظاهرية تلك في القاهرة، يشير إلى مدى حرص الملك الظاهر بيبرس على إنارة عقول الناس بلغتهم، ودينهم، وعلومهم الأخرى، لأن عاقبة التدهور الثقافي هو عدم الإلمام بالدين والمعرفة الحقة، والانتهاء بالنتيجة إلى الجهل الذي يهزّ الوحدة في الشخصية الفردية، وبالتالي، قواعد المطالبة أو العمل لإرساء أسس الحقّ، وتثبيت العدل، في إطار الفهم الدقيق لمعنى الحقوق والواجبات، والميزان المستند إليهما. كما أن اهتمام بيبرس باختيار خيرة الأساتذة للتعليم في المدرسة الظاهرية معنيّ بإحياء التفكير، والخروج من نقطة الجهل بالأوضاع الخطيرة، التي يتعرّض لها العالم العربي الإسلامي، إلى نقطة الإلمام بمجريات الأمور، للعمل في البوتقة السليمة، في سبيل توطيد الحقّ، كواجب روحي، إذ أن سنن الحياة التي لا تحويل لها ولا تبديل، جوهرها الحق والعدل. هذا، وبتلك المنزلة السامية المخصّصة للمدرسة الظاهرية في القاهرة، ألحقت بها ـ في ضمن سياسة بيبرس التعليمية ـ مكتبة عظيمة بما تحتويه من مؤلفات نفيسة في الدين، والأدب، وباقي العلوم التي تستند على القرآن الكريم. هذا، وبما أن العلم مستند إلى الدين الذي يدعو إليه، فالدين والعلم يتجهان نحو محور واحد، وكلاهما كما يقول توفيق الحكيم في مؤلفه «تحت شمس الفكر»، «يعي ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود، ووحدة قوانينه، ودلالة وحدة الوجود على وحدة

---

(١) الأشتر....، المصدر السابق، ص ٦٠.

الخالق!... ولم يظهر نبيّ حقّ ولا عالم حقّ شعر بغير ذلك!... إنما الفارق بين العلم والدين هو في السبل التي يسلكها كل في الدنوّ من الله...»[1]. إذن، نستطيع أن نرى هنا أهمية اهتمام الملك الظاهر بيبرس في العلم في القاهرة، ولكن من منطلق وجود وحدة جغرافية بجهوده أثناء حكمه ـ حيث شملت دولته مصر وبلاد الشام إضافة إلى الحجاز وأقسام من العراق ـ[2] فقد نشر سياسته التعليمية في البلاد الأخرى، فقد أنشأ المدارس والمكتبات أيضاً. فبنى مثلاً المكتبة الظاهرية العامة في مدينة دمشق، والتي لا تزال تحمل «اسم المكتبة الظاهرية ببنائها القديم الجميل وبجانبها حمّام الملك الظاهر»[3]. إن إقامة مكتبة عامة بضخامة المكتبة الظاهرية بدمشق، تهدف باعتقادنا لدفع الناس نحو الثقافة الشاملة، والثقافة سبيل هام لبناء الشخصية الفكرية على أسس من القوة الروحية والمعنوية، المتطلبة للصمود، والجهاد، أمام التحديات ضد الإسلام والمسلمين. على أن وجود حمّام الملك الظاهر بيبرس قرب المكتبة الظاهرية بدمشق يرمز إلى تكثيف وجوده في دمشق، وحرصه البالغ على توسيع آفاق أهلها بالعلم والمعرفة تماماً كما هو الحال في القاهرة موطن الخلافة، والسلطة المركزية، ومن دمشق لباقي الأقطار التابعة للسلطة المركزية.

٣ ـ مفهوم السلطة المركزية بمصر ووضع القدس

وبالوصول إلى هذه النقطة، فالسؤال الذي يراودنا هو: ما

---

(١) الحكيم، المصدر السابق، ص ٣٠.
(٢) الأشتر....، المصدر السابق، ص ٧٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ٦١.

معنى تعبير السلطة المركزية؟ هي السلطة، بكل مؤسساتها الجوهرية سياسياً، وروحياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وعلمياً، المركّزة في العاصمة والتي تصدر منها التعليمات الإدارية لكل السلطات المحلية التابعة للمركزية. فمثلاً، لو أخذنا القاهرة ودمشق، فإن التعليمات الإدارية كلها تصدر من القاهرة إلى دمشق بوسائط بريدية منظمة أقامها الملك الظاهر بيبرس، هذا، وعندما تكون سلطة مركزية في مكان، وتنتقل منها السياسات إلى مكان آخر جوهري في أمة موحّدة بإطار جغرافي محدد، فقد يستقيم للمكان الثاني (وهنا دمشق)، نقل السياسات الصادرة عن السلطة المركزية في مصر إلى كل الأماكن التابعة لبلاد الشام، بحيث تكون دمشق هي المشرفة من زاوية النشر للسياسات تلك من جهة، وإعلام القاهرة رسمياً بكل مجريات الأحداث الداخلية في بلاد الشام من جهة أخرى. هذا، وطالما أن مدينة غزّة تشكل إحدى أربع مناطق في بلاد الشام وطالما أن إدارة القدس كانت من نصيب والي غزة، المكلّف بدوره بمسألة تعيين والٍ على بيت المقدس والخليل[1]؛ فمعناه أن سلطة المماليك الإدارية وهيمنتهم كانت موجودة تماماً في القدس، لو ركّزنا عليها بالذات، لأهميتها الروحية، وذاك يعني أن سياسة الملك الظاهر بيبرس العلمية، منبعها بالقاهرة، وانتقلت إلى دمشق، ومن دمشق إلى غزة، وبرعاية والي غزة الذي يختار والي القدس، انتقلت إلى القدس. فتجلّت بذلك وحدة ثقافية في كل تلك الأقطار، عزّزها في القدس وجود المسجد الأقصى فيها، وقبة الصخرة التي أصلحها الملك الظاهر بيبرس في زمانه، كما ذكرنا سابقاً. ولا ننسى أن المساجد

---

(١) **الصراع الإسلامي الفرنجي...**، ص ٤٥١ ـ ٤٥٢.

كانت مراكز هامة للعلم، فما بالك بمسجد يحمل قدسية خاصة في العقيدة الإسلامية مثل المسجد الأقصى؟ لا بدّ وأنه كان مركزاً حياً للعلم والمعرفة في عهد الملك الظاهر بيبرس والمماليك، والدليل على ذلك إيجاد وثائق به مؤخراً.. وثائق الحرم، التي كما يذكر تحمل معلومات هائلة عن «القدس» في العصر المملوكي يتطلّبها العمل، وبصدد أهمية تلك الوثائق، فقد ورد في مقالة بعنوان «الحياة في القدس في عهد المماليك كما تصوّرها وثائق الحرم الشريف»، ما يلي بلسان كاتبتها المستشرقة ليندا نورثروب: «ويقدّر دونالد ليتل (D. Little) أنه لم يصل إلينا في العصر المملوكي، قبل اكتشاف وثائق الحرم، إلاّ تسعمائة وخمس وعشرون وثيقة، ولقد بلغ عدد وثائق الحرم الشريف التي اكتشفت حتى اليوم ثمانمائة وثلاث وثلاثين وثيقة. على أن الكثير منها يشتمل على أكثر من إجراء قضائي واحد بحيث أن العدد الفعلي للوثائق قد لا يتعدّى الألف وثيقة. ولقد أدّى اكتشاف وثائق الحرم الشريف الخبيئة، واكتمال المسح الذي أجرته مدرسة الآثار البريطانية لمعالم القدس الإسلامية، إلى زيادة مثيرة في المعلومات الأساسية المتوفرة للباحثين في تاريخ القدس في العصور الوسطى»[1]. هذا، وبما أن وثائق الحرم تلك تدور على محاور رئيسية ثلاثة ذكرناها سابقاً ولا بأس من تكرارها الآن «١) الوثائق الإسلامية (السجلاّت الرسمية Diplomatics)؛ ٢) القضاء الإسلامي؛ ٣) تاريخ القدس الاجتماعي والاقتصادي في العصور الوسطى...»، فمما لا شك فيه، أن ذلك يؤكد الوجود المملوكي في القدس. فالوجود المملوكي لا يحتاج لأن يكون الملك الظاهر بيبرس ومن أتى

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٣٦.

بعده، بسلطته المركزية هناك، لأن تعاليمه سياسياً، وعسكرياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وثقافياً تنتقل من القاهرة إلى كل أرجاء البلاد التي وحّدها، فكيف بمدينة مقدّسة مثل القدس، أعطاها، ومن أتى بعده رعاية كبيرة؟ ومن هنا، فوثائق الحرم لا بدّ وأن تعكس، بصورة دقيقة، مسألة الوجود المملوكي في القدس. ومن هنا، ومن دوافع الدهشة إثارة النقطة التالية من الكاتبة ليندا، حيث تقول فيها، بعد أن تحدثت عن أمور جوهرية بعلاقة المماليك بالقدس، تعكس حقيقة مدى قوة السلطة المركزية للمتأمل بها والناظر عن كثب: «لا نعرف، في هذه المرحلة من البحث، ما إذا كانت وثائق الحرم تعكس بصورة دقيقة الوجود المملوكي في المدينة»[١]. ثم تضيف قائلة: «لكن هدى لطفي تعتقد أن أملاك المماليك أدرجت في الغالب، في قوائم مستقلة، ولم تظهر لذلك في العيّنة المؤلفة من جردات التركات في المجموعة!!»[٢]. ثم تضيف الكاتبة القول: «غير أن وثائق الحرم القليلة التي تخصّ المماليك تؤكد الانطباع الذي تتركه عبارة مجير الدين أعلاه، وهو أن الوجود المملوكي في المدينة كان، في معظمه، يتألف من ذوي الرتب الدنيا والمتوسطة في سلسلة مراتب المماليك، وقلّة منهم أتت المصادر الأدبية إلى ذكرها»[٣]. ومن تلك النقطة، تضيف الكاتبة ليندا قائلة: «لكن تحسن الإشارة إلى أنه على الرغم من رتبهم الدنيا، فإنهم كانوا، على ما يبدو، أثرياء إذا ما قيسوا بالكثرة الغالبية من السكان الذين يتمثلون في الوثائق»[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٤٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٤٩ _ ٤٥٠.

الظاهر أن الكاتبة ليندا، ومعها أيضاً الكاتبة هدى لطفي تنظران إلى معنى تعبير «الوجود المملوكي» في القدس في التاريخ، من زاوية مادية بحتة، ومع أننا لا ننكر أهمية تلك الزاوية، إلاّ أنها لا تشكّل إلا جزءاً ضئيلاً من معنى عبارة «الوجود المملوكي» بإطارها الشامل، والاعتماد على الجزء الضئيل معناه بناء أحكام من منظار دائرة محصورة ضيقة، قد لا تعكس الأمور في منظارها السليم، الدقيق، إجمالاً. فالوجود المملوكي لا يقرّر من خلال أملاك المماليك المدرجة في قوائم مستقلة بالوجه الأغلب، ولم تظهر حتى «في العينة المؤلفة من جردات التركات في المجموعة»!! ولا يظهر من تعداد المماليك ورتبهم!! وإضافة لذلك، لا توجد رابطة فكرية، بالمعنى المنطقي، تدعو للمقارنة بين ثراء هؤلاء وبين الغالبية الكبرى من سكان المدينة كما يتمثل ذلك في الوثائق بقول الكاتبة ليندا!!

إن شرح كلمة «الوجود» فيما يتعلق بالدولة الكبيرة بسلطة مركزية هو بسط مهابة الدولة في عاصمتها أولاً، ثم باقي البلاد التي تخضع لسلطانها ثانياً. وكما قلنا فذلك يكون ضمن كل المؤسسات التكوينية للدولة من سياسة، واجتماع، واقتصاد، وثقافة، وقضاء طبعاً، بحيث نرى مظاهر الوحدة في المضامين والأساليب الإدارية، والأهداف، والنتائج. هذا وتكثيف وجود السلطة المركزية إلى أبعد حدّ ليس أمراً مفيداً للصالح العام. فالسلطة المركزية تفرض هيبتها عادة ضمن سياسة موحدة لجميع أقطارها، حتى يبقى المجتمع فيها كأسرة واحدة ككل. ولكن مع الصيغة الموحّدة تلك في مؤسساتها الإدارية والسياسية، فهي إن أرادت النجاح على المدى البعيد ـ بكل ما ينضم من أقطار لها ـ يجب أن تكون مرنة. والمرونة تعني إعطاء سلطة لولاة البلاد

التابعين للسلطة المركزية، في التصرّف في قوانين تتطلّبها بلادهم لأسباب تاريخية أو جغرافية أو أسباب تتعلق بالتركيبة السكانية.. مثلاً، التصرف بقوانين تجارية، اقتصادية، عمرانية في ظل بنية قضائية محكمة.. أو بمعنى آخر، فالسلطة المركزية الحكيمة تهيمن على أقطارها بإدارة معنية بكل المؤسسات، ولكن تترك جزءاً للاجتهاد في سنّ القوانين للولاة، بحيث لا تتعارض مع المحور العام، والهدف الواحد، وذلك حتى تبقى الوحدة المعنوية قائمة.

بالنسبة للملك الظاهر بيبرس، فكما قلنا سابقاً، كان حاكماً مرناً، قوي البصيرة، محباً للمحكومين، حريصاً على حقوقهم، ولذا اشتهر بالعدل، وبنى سياساته على الحرية والعدل والمساواة، وحارب الفساد، واللصوصية. والشخص المرن الذي يتوصل إلى قراراته «بالشورى» مثل بيبرس، لن يضع نفسه كحاكم مطلق، بحيث لا يرضى إلاّ بكلمته، بل يعطي ولاته حرية جزئية للتصرف بما يلائم ظروف بلادهم على ضوء الأحوال لديهم، والمستجدات، والتطورات التي تأخذ مجراها مع تقدم الزمن. وكحاكم في كفاءة بيبرس ونبوغه، لا بدّ وأن يكون قد أخذ دروساً عن عواقب تحكم السلطة المركزية الجارف، مع سمات ذلك التحكم تاريخياً، فمثلاً لنأخذ الدولة العباسية، فسمات التحكم المركزي فيها مع عواقبه تتمثل في الفقرة التالية من كتاب «مرآة الإسلام» لطه حسين حيث يقول فيها: «كانت قوة السلطة المركزية في العصر العباسي خاصة تمنع الناس من الجهر بآرائهم في السياسة والنضال عنها، فلم يكن لهم بد من أن يسرّوا آراءهم، ويستخفوا بدعوتهم، ويديروا ثوراتهم من وراء الحجب الصفاق.

أضف إلى هذا أن الثقافة في العصر العباسي تجاوزت طبقة العلماء المتخصصين وطبقة الأغنياء الذين كانوا يستطيعون أن يأخذوا منها بحظوظ مختلفة، وتغلغلت في بعض طبقات الشعب فلم يلبث الناس أن عرفوا حقوقهم، وشعروا بما كان يفرض عليهم من ظلم السلطان، واستئثار الأغنياء دونهم بطيبات الحياة، واستذلالهم للفقراء، واستغلال الأقوياء للضعفاء، فنشأت عن ذلك الدعوة إلى لون من الثورة... مطالبة بالحقوق الاجتماعية، وجهاداً في سبيل تحقيق العدل وشيء من المساواة، فكانت ثورة الزنج في البصرة، تلك التي ثار فيها الرقيق بالسادة، والتي عرّضت مركز الخلافة لخطر عظيم، واضطر أولو الأمر في بغداد إلى أن ينفقوا في مقاومتها جهداً مضنياً، ومالاً مبهظاً، ولم يستطيعوا إخمادها إلاّ بعد حرب عنيفة شديدة العنف، طويلة مسرفة في الطول»[1]. إذن، فالتحكم الشديد من قبل السلطة المركزية ـ بحيث تقف كسد منيع ضد حرية الفكر والتعبير ـ يؤدي بالنتيجة إلى فتن داخلية. بالنسبة للملك الظاهر بيبرس، فمن الواضح أنه كان شديد الحرص على الاستقرار والأمن في ربوع البلاد التابعة له كلها، لأن مقصده كان تدعيم وإنشاء جبهة داخلية قوية لمواجهة الأخطار الخارجية، وقد حدث في بداية حكمه ثورة من قبل أمير دمشق، سنجر، لأن الأخير ذاك كان طامعاً بالسلطة، فرفض الاعتراف لبيبرس بالسلطنة، فتمكن بيبرس من احتوائها ببعض الحيلة والدهاء المبني على تعقل وحكمة، كما أنه أخمد، في الوقت نفسه، ثورة في حلب بقيادة الأمير البرلي. هذا، وعندما وصلت الأنباء تلك إلى القاهرة، تآمر بعض المماليك عام (١٢٦١ م) لاغتيال بيبرس،

---

(١) حسين، المصدر السابق، ص ١٦١.

فقبض ذلك السلطان عليهم، ثم عفا عنهم جميعاً[١]. هذا، وما أن قضى على محاولات إثارة الفتن ضده، أو المحاولات لقتله، عندما تولى السلطة حتى اتجه نحو سياسة داخلية حكيمة، محورها توحيد المجتمع في ظل التعاون، والتآلف، والتعاضد الذي يدعو إليه الدين الإسلامي.. وإعطاء الناس حرية للتعبير في الحدود السليمة، وإعطاء الولاة أيضاً حرية التصرف بالقوانين التي توطد الأمن والاستقرار في بلادهم، بحيث يحافظ على الوحدة، في ظل السلطة المركزية، في أحسن وجه.

بإبقاء تلك المعلومات في ذهننا، والعودة مرة أخرى لمسألة الوجود المملوكي في مدينة القدس، فيجب أن يفهم في الخطوط المبيّنة أعلاه.. وهو للتكرار حقيقة، ولكن بما أن الوجود ذاك ليس قائماً على أسس استبدادية، كما كان الحال مع العباسيين، بل قائم على المرونة، فقد يسهو الباحث أو الباحثة المقيّدة سهواً بالدائرة المحصورة، عن رؤية الحقيقة، فترى عدم وجود السلطة المملوكية الاستبدادية في القدس، على أنه ركود سياسي. ومن هنا، بتركيز على حديث الكاتبة ليندا في مقالتها عن «الحياة في القدس في عهد المماليك كما تصورها وثائق الحرم الشريف» نرى أنها رأت فعلاً ركوداً سياسياً في القدس طوال العهد المملوكي، حيث تقول بكلماتها: «لقد أشاع الحكم المملوكي قسطاً من الاستقرار والسلام في المنطقة، وهو ما أتاح للقدس أن تزدهر، وأتاح لشخصيتها الإسلامية أن تتطور تطوّراً حثيثاً. غير أن القدس ظلّت طوال العهد المملوكي مدينة راكدة سياسياً، ولمّا كان الخطران الرئيسيان يتمثلان في المغول والصليبيين، فلقد أولى

---

(١) الأشتر....، المصدر السابق، ص ٣١.

المماليك عنايتهم في الدرجة الأولى للدفاع عن شمال الشام وعن المدن الساحلية»[1]. هذا، وبالنظر عن كثب في عبارة «غير أن القدس ظلّت طوال العهد المملوكي مدينة راكدة سياسياً» نرى أن تلك العبارة هي بمثابة نتيجة لنظرة معينة، ولكن عادة لا يجوز للنتائج أن تكون جارفة، ولن تكون، لو تمّ التوجّه نحو تحليل الأمور التاريخية في بوتقة كلية، لا بوتقة التجزئة. فالتجزئة تقود الباحث إلى السهو عن بعض الحقائق، وبالتالي التقدم بنتيجة أو أخرى، غير دقيقة في صبغتها، أو ملتبسة بصدد نقطة أو أخرى. هذا من جهة، أما من جهة أخرى، فإن المتمعّن في كلمات الكاتبة ليندا المذكورة أعلاه، يرى فيها عدم وضوح من ناحية، وعدم تسلسل فكري بحيث يبيّن الروابط في الإطار الصحيح من ناحية أخرى. مثلاً تقول: «لقد أشاع الحكم المملوكي قسطاً من الاستقرار والسلام في المنطقة، وهو ما أتاح للقدس أن تزدهر، وأتاح لشخصيتها الإسلامية أن تتطور تطوّراً حثيثاً، غير أن القدس ظلت طوال العهد المملوكي مدينة راكدة سياسياً»، والجدير بالذكر هنا أنه من المؤكد أن إشاعة الاستقرار والسلام في المنطقة يعبّر عن سياسة مملوكية حكيمة، خرجت من المركز إلى كل الأقاليم والمدن. إذن، فهناك حركية، هناك سياسة، لا ركود بتاتاً، وثانياً، فإن نماء القدس جاء للاهتمام المملوكي بها لقدسية مكانتها الروحية في الإسلام بموجب «مضامين الإسراء والمعراج»، وأتى ذاك ضمن متابعة لخط بدأ به صلاح الدين الأيوبي لإعادة الصبغة الإسلامية، إلى تلك المدينة، بعد احتلالها لثمانية وثمانين عاماً من قبل الصليبيين. ومتابعة خط تاريخي للحفاظ على المدينة يدخل

---

(١) الصراع الإسلامي الفرنجي. . .، ص ٤٤٨.

في بوتقة السياسة في اهتمامها بالزاوية الروحية في الإدارة المركزية المملوكية، سواء في عهد الملك الظاهر بيبرس أم من أتى بعده.

هذا ونرى الكاتبة ليندا وقد تحدّثت عن المساهمات الأيوبية المملوكية في استرجاع الصبغة الإسلامية للقدس، ولكن دون الانتباه إلى أن ذلك يدخل في نطاق المسار التاريخي لسياسة موحدة، بالنسبة لتقدم وازدهار القدس، وأمنها واستقرارها. صحيح أن بيبرس هو الذي قضى على الأيوبيين لأنهم كانوا في مراحل انحدار وعجز عن مجابهة الأوضاع، ولكن بيبرس لم يكن يحمل أي ضغينة لصلاح الدين الأيوبي بالذات، بل تبع مسلكه الروحي والثقافي في كثير منه، مع غيره من المماليك. وبصدد ذلك المسلك الذي قدّمته الكاتبة ليندا، في منظار جزئي، لرؤية الأشياء، فقد قالت: «وبنى الأيوبيون ثم المماليك بصورة خاصة أبنية جديدة كثيرة، منها المساجد، والمدارس، والخانقاهات، والزوايا، ودور الحديث، ودور القرآن، ومكتبات الأيتام، والمارستانات، والسبل، والمطاهر، والربط»[1]. ثم تضيف القول: «ويذكر بورغوين أن مثل هذه المؤسسات منتشرة في معظم البلدات الكبيرة، ولكن ما يجعلها فريدة هنا هو ارتباطها المتميز بالحرم»[2]. لقد غاب عن فكر الكاتبة هنا أن انتشار المساجد والمدارس والخانقاهات... الخ في معظم البلدات الكبيرة يعبر عن سياسة مركزية منظمة نحو الإعمار، ولكن عندما تستشهد بقول كاتبة أخرى لتأكيد أن أهمية المؤسسات تلك في القدس، هو ارتباطها المتميّز بالحرم، فذاك يعني بالواقع اهتماماً خاصاً من

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٥٤.

السلطة المركزية، لربط تلك المؤسسات بالحرم الشريف، وبالتالي، فذلك تعبير عن سياسة مملوكية خاصة بالقدس، احتراماً لمكانتها الدينية. وعليه، فالقدس روحياً ومعنوياً كانت في قلب الحكم المملوكي، تماماً كما كان حالها أيام نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وذاك يعني أن الاهتمام الروحي العظيم بالقدس مرتبط بالسياسة المملوكية المعتمدة بدورها على العقيدة الإسلامية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه مع تقدّم الكاتبة ليندا لنتيجة وجود ركود سياسي في القدس في العهد المملوكي، تراها وهي تقول تحت عنوان «الحياة الدينية والفكرية» في مقالتها المذكورة سابقاً: «لقد رافق الأنشطة العمرانية التي قام الأيوبيون والمماليك بها ازدهار في الأنشطة الفكرية الموائمة، وفي وثائق الحرم شواهد تبين اهتمام سلطنة المماليك في القاهرة على مدى نحو مائتي عام بتأمين الدعم المالي لصيانة المزارات والأنشطة المتصلة بها. وأمكن استخراج سبعة مراسيم سلطانية، منها ستة، أو لعلّ سبعتها، تتعلق بالحرم الشريف، وأقدم الوثائق تلك التي أصدرها السلطان الظاهر بيبرس سنة (٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م)، تأمر ولاة وموظفي سوريا أن تظلّ ناحية العوجا في الغور وقفاً للقدس وأن يكرّس الدخل كله لصالحها»[١]. إذن، هنا نرى وثيقة صادرة عن بيبرس، تحمل في ثناياها أمراً لولاة وموظفي سوريا لبقاء جانب العوجا في الغور وقفاً لمدينة القدس، مع تكريس الدخل بأكمله لصاحبه. ما معنى ذلك بالتعبير السياسي؟ معناه صدور أمر من السلطة المركزية، لولاة

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥٦.

سوريا، بما يختص بالقدس بالذات وصلاحها، وصلاحها جزء لا يتجزأ من سياسة الدولة أيام بيبرس، مما يعني أنها لم تكن راكدة سياسياً. فالأمر من بيبرس يمتد من والي دمشق، لوالي غزة، ثم لوالي القدس. وبذلك فالسياسة تنتقل من مكان لمكان، حيث كان يتمّ التنفيذ لأمر السلطان. إذن، مرة أخرى، أين الركود السياسي في القدس بل والإداري كما تشدّد الكاتبة ليندا؟ هذا بالرغم من أن مضمون الوثيقة روحي، وهو تأمين «الدعم المالي لصيانة المزارات والأنشطة المتصلة بها»، والأنشطة المتصلة بها هي جزء من التكوين الفكري في دولة الظاهر بيبرس وغيره من المماليك. فالمماليك كان لهم اهتمام خاص بالطرق الصوفية، وأصحاب الطرق بدورهم كان لهم اهتمام بالمزارات والأنشطة الخاصة بها، وكان لأصحاب تلك الطرق دور في التشجيع للجهاد. وقد ذكرنا مسبقاً عن زيارة الملك الظاهر بيبرس لعالم من الفرق الصوفية الهامة في إنشاء سياسة قوية محورها الجهاد في مواجهة الصليبيين والتتار.

من كل ما تقدم، نرى أنه كيفما نظرنا إلى الأشياء، فإن للقدس مكانة سياسية وإدارية بالخطوط المبينة أعلاه، خطوط واضحة جداً للعيان. ولكن نجد الكاتبة ليندا وهي تبحث بالتخصيص بالجانب السياسي والإداري، تعود لترديد مثل العبارات التالية: «كذلك لم تكن القدس مركزاً إدارياً مهماً؛ فلقد كان هذا الشرف من نصيب دمشق...»[١]... ثم «وعلى الرغم من افتقار القدس إلى المكانة السياسية والإدارية، فلقد حافظت السلطنة، في أية حال، على شيء من الضبط لشؤونها»[٢]. وتعني هنا الضبط

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٥٣.

فيما يتعلق بالقضاء، ولكن تمضي من ثم لإحضار دلائل تعتقد أنها تؤيّد نظريتها الموجودة في هاتين العبارتين، في حين أنها، كما يبدو، تسير في اتجاه مخالف تماماً، أي لتأييد وجهة النظر الأخرى، فتقول: «غير أن ليتل وجد أن وثائق الحرم تدل أيضاً على أن محاكم القدس وقضاتها كانوا في بعض الأوقات تابعين لمحاكم عليا وقضاة أعلى في القاهرة»[1]. ماذا يعني ذلك؟ يعني أن القضاء بمؤسسته المركزية موجود في القاهرة، والمحاكم والقضاة في باقي الأماكن، يرجعون إلى القاهرة في أكثر الأحيان. ولكن ومع هذا، فللقضاء جزء من استقلاليته ضمن الظروف والطوارىء والمستجدات في كل ولاية أو مدينة تابعة للمماليك. فنحن نعرف أن القضاء يضم جانبين: الجانب الشرعي الذي يحتوي في ثناياه على أمور الزواج والطلاق والميراث والوصية وغيره مما يلزم لتنظيم حياة الفرد والجماعة، ثم القانون المدني، الذي يتبع حالة المجتمع، بل ويشكل مظهراً من مظاهر أوضاعه والتغييرات الجارية فيه. بمعنى أنه حتى بوجود سلطة مركزية مع وحدة في الدين واللغة والشعور، إلاّ أنه قد تنشأ اختلافات اجتماعية بين ولاية وأخرى لها جذور بالعوامل التاريخية والجغرافية والسكانية وأمور كتلك تتطلب قوانينها. إذن مرة أخرى، نرى روابط إدارية وثيقة بين القدس والسلطة المركزية في مصر بشكل أكيد، ولكن ومع ذلك، فالكاتبة ليندا، في سعيها لإثبات ما تسمّيه بـ «افتقار القدس إلى المكانة السياسية والإدارية»، تمضي لإعطاء ما تعتقده بدلائل لإثبات وجهة نظرها بالقول: «وإن حضور ممثلين عن الحكم المملوكي لوقائع الجلسات أمر يمكن مشاهدته في

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥٣.

اثنتين من وثائق المخزونات التي تسجّل بيع تركتين، وفي وثيقة من وثائق الإرث الحشرية، واستناداً إلى هذا الدليل تستنتج هدى لطفي «أنه إذا كانت الإدارة في القاهرة تعلم بأن هؤلاء الأشخاص يوشكون أن يموتوا أو قد ماتوا فعلاً فذلك يعني أن الاتصالات مع العاصمة كانت نسبياً ميسورة وأن بين الإدارتين درجة من التنسيق»[1]. إن حضور ممثلين عن الحكم المملوكي لوقائع الجلسات، كما يظهر من الوثائق المذكورة أعلاه، يعني مرة أخرى وجود ترابط وثيق بين السلطة المركزية في القاهرة، والإدارية في القدس. إذ ما معنى كلمة «ممثّل»؟ الممثّل هو من ينوب عن شخص بالسلطة المركزية بسبب كثرة مشاغل الآخر، ولكن يحمل أفكاره وأوامره إلى الولايات أو المدن التابعة للسلطة المركزية، ثم يرجع بتقريره إليه. إذن، فوجود ممثلين أمر يكفي لإثبات التعاون الإداري الوثيق بين القدس والقاهرة، ولا يحتاج باعتقادنا، حتى لاستنتاج هدى لطفي القائل: «إنه إذا كانت الإدارة في القاهرة تعلم بأن هؤلاء الأشخاص يوشكون أن يموتوا أو قد ماتوا فعلاً فذلك يعني أن الاتصالات مع العاصمة كانت نسبياً ميسورة وأن بين الإدارتين درجة من التنسيق»!!. أولاً، الاستنتاج لا يتلاءم مع حجم السلطة المركزية للمماليك، سواء في عهد الملك الظاهر بيبرس أو من أتى بعده، لأن التاريخ غير محدد هنا، بل على العكس، فالاستنتاج قد يصغّر من الحجم البنائي التكويني للسلطة المركزية المملوكية ويفقدها الكثير من مهابتها وقيمتها الفعلية، وذلك يبدو لنا، بموجب فهمنا للأمور، كإجحاف بحقّ المسيرة التاريخية العربية الإسلامية في القرون الوسطى. هذا من جهة، أما

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤.

من جهة أخرى، فقول هدى لطفي: «فذلك يعني أن الاتصالات مع العاصمة كانت نسبياً ميسورة»، فالسؤال، ماذا تعني بكلمة «نسبياً»؟ وماذا تعني بكلمة «ميسورة»؟! عندما تؤسس دولة بسلطة مركزية، فمن البديهي أن تكون الاتصالات، لا «ميسورة» فقط، بل وثيقة أيضاً، وإلاّ ما فائدة النظام المبني على سلطة مركزية بكليّته ابتداء من عهد الملك الظاهر بيبرس حتى انتهاء الحكم المركزي المملوكي؟ الاتصال بين العاصمة في السلطة المركزية وباقي الولايات أو المدن جزء لا يتجزأ من نظام الحكم القائم على مناطق متّحدة، والتنسيق في ذلك النوع «كامل» بين العاصمة وباقي المناطق، أي ليس على درجة معينة كما أتى بقول هدى لطفي: «وإنّ بين الإدارتين درجة من التنسيق»!! وتجدر الإشارة هنا، مرة أخرى، إلى أن الاستنتاج السليم، يجب أن يقوم على قواعد صلبة، قواعد تدرس فيها الأمور التاريخية في بوتقة شاملة لا بوتقة جزئية تصل أحياناً لبناء استنتاج على مثل أو اثنين أو ثلاثة أو أكثر بقليل!! فتأتي على عكس الحقيقة التاريخية تماماً، أو إن لم يكن الحال كذلك، تأتي ربما بغير قصد، لتصغّر من قيمة التاريخ العربي الإسلامي في فترة ما، وتقلل من وزنه!! بالواقع، فالتاريخ المملوكي لا يخضع لمثل استنتاجات الكاتبتين المذكورتين أعلاه كما نفهم الأمور، فهو أكبر بمراحل من ذلك، ومن شأن وثائق الحرم، لو دُرِست في إطار الأحداث التاريخية الجارية كلها في العصر المملوكي، أن تزيد من عصر الملك الظاهر بيبرس وغيره ممّن ساهموا في إنهاء الوجود الصليبي في البلاد العربية الإسلامية، شرفاً وعزّة، ومن شأنها أن يزيد ذلك التاريخ فخاراً، للرعاية التي أولتها السلطة المركزية للقدس، وخصوصاً في عهد الملك الظاهر بيبرس!! ألا يكفيه مفخرة، إيجاد وثيقة صادرة عنه

(٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م) تأمر ولاة وموظفي سوريا أن تظلّ ناحية العوجا في الغور وقفاً للقدس وأن يكرّس الدخل كله لصالحها، كما ذكر سابقاً، ألا يقف ذلك، إضافة لما تقدّم ذكره، على أن القدس كانت مزروعة في قلب الملك الظاهر بيبرس، كما كانت سابقاً في قلب صلاح الدين الأيوبي، ومن قبل نور الدين زنكي، وعماد الدين زنكي، وأنه اعتبرها أمانة في عنقه مخصص جزءاً من تلك الأمانة لولاة أخر، بالإطار الذي شرحناه سابقاً، على أساس أنه كان في معظم وقته على جبهات الجهاد ضد الصليبيين والمغول، وحلفائهم!! وذلك يعني حقيقة الوجود الوجداني للقدس في السلطة المركزية وكل توابعها. فالقدس كما ورد في مقالة عميقة ببحثها وتحليلها واستنتاجاتها لهادية دجاني شكيل، بعنوان «بيت المقدس في الوجدان الإسلامي» ـ فهي داخلة في الضمير الإسلامي منذ رحلة الرسول محمد ﷺ من مكة إلى القدس في الإسراء والمعراج وتقول بهذا الصدد: «دخلت فلسطين في الوجدان الإسلامي مع الآية القرآنية المشيرة إلى الإسراء من المسجد الحرام بمكة المكرّمة إلى المسجد الأقصى، الذي عرف بأنه فلسطين أو «بيت المقدس»....»[1]. إذن، فأهمية القدس تاريخياً وروحياً، أتت منذ زمن الرسول ﷺ. وتقول الكاتبة شكيل: «فقد ظلّ الرسول يخطّط لفتحها في الوقت الذي كان يخطّط لفتح مكة، ومن هذا المنطلق كاتب هرقل، داعياً إياه إلى دخول الدين الجديد، كما جهّز حملتين لفتح فلسطين، لكنه توفي قبل أن يتم الفتح. وتشير بعض الروايات إلى أن الرسول ﷺ كثيراً ما تحدّث وتنبّأ وأنبأ بفتح بيت المقدس قبيل وفاته، وهو ما يدلّ على أن فتحها كان يطغى على تفكيره في

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤.

أواخر حياته... (وقد) عزّز الرسول مكانة القدس... في الوجدان الإسلامي بعدّة أحاديث...»[1]. ماذا يعني ذلك؟ يعني أن القدس دائماً حية في قلوب المسلمين، وكانت كذلك في الماضي والحاضر.. ومن ثم كان الحال مثل هذا أيضاً تماماً في قلب الملك الظاهر بيبرس، الذي سار على نهج صلاح الدين بتدعيم الهوية الإسلامية فيها، وبالوقت نفسه، فقد أولى الملك الظاهر بيبرس عناية خاصة أيضاً للأماكن المقدسة في الحجاز لمّا بسط نفوذه هناك. ومن هنا، أحيا المعاني الروحية كلها لرحلة «الإسراء والمعراج» من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فزاد تقرّب الناس منه لإيمانه، وعدله، وتواضعه، والجلوس مع شعبه في كثير من الأحيان، وكأنه واحد منهم، والتفقد لأحوالهم حتى بشكل شخصي أحياناً. هذا أمر هام جداً، جعله كبطل شعبي، والذي يصل إلى تلك الدرجة يأخذ اللقب عن استحقاق، إذ كم يحوي التاريخ من حكام ورجال سلطة، وكم يعتبر منهم أبطالاً في حيّز موازين الفكر البطولي، وهي صحيحة تماماً. ولكن عندما يأتي شخص بعد فترة طويلة من عهد الصحابة «الخلفاء الراشدين» بكل أهميتهم في التاريخ، ومحبة الناس لهم، ليلقى إقبالاً شعبياً، فذاك يسجّل له تاريخياً. ومن هنا، فالاهتمام «بسيرة الملك الظاهر بيبرس» أمر مطلوب، وعليه لا بدّ من إشارة ثناء أيضاً للمقالة العميقة في التقديم والتحليل والاستنتاج عن ذلك الكتاب، للكاتب برهان الدجاني، وهي بعنوان «سيرة الملك الظاهر بيبرس عرض ونقد أدبي»، ونرى ضرورة الآن لاقتباس إحدى ملاحظاته بكلماته عن تلك الرواية للأهمية القصوى: «هي إحدى روائع الأدب، ولا

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٤ ـ ٣٥.

يقتصر حكمنا هذا على الأدب العربي وحده، بل إنها تحتل موقعاً ممتازاً ومتميزاً في الأدب الإنساني كله. فهي تمثل نضال الشعوب الإسلامية في برّ الشام وبر مصر، ومن خلفهم شعوب عربية وإسلامية أخرى، في التصدّي للهجوم الصليبي، ودحره، وردّه على أعقابه. كما أنها تصف تقدّمهم للطوفان التتري المغولي، وإيقافهم له، وهي تتعامل مع الأحداث بواقعية تلفت الأنظار. ولئن عالجت الأحداث من خلال أعمال الأبطال، وعلى رأسهم الملك الظاهر بيبرس، فإنها قريبة من واقع حياة الناس، ومدركة الارتباط الكبير بين الحياة اليومية والمعيشية لأبناء الشعب وبين الأحداث الجسام التي تجري حولهم. ويتمثل هذا الإدراك في أن بطولة بيبرس، في نظر الرواية، لا تقتصر على إنجازاته العظيمة في حرب ضروس ضد الصليبيين من ناحية، وضد التتر من ناحية أخرى، وعلى جبهتين شرقية وغربية، بل تشمل أيضاً تمهيدها لهذه الإنجازات بالتقرّب من الشعب، وبالعمل الحازم على نشر العدل، والدفاع عن حقوق الناس، وإقرار الأمن، واجتثاث الجريمة، والقضاء على المجرمين وعصاباتهم بحزم، وفي إطار من الشرع، وبالتالي، يصح القول حتماً أن شعبية هذه الرواية شعبية متميّزة؛ فهي لا تتوقف عند «الإعجاب» الشعبي بالأبطال، كصور مُثلى، ترفع الناس من خلال المطابقة نفسياً، وتوفر لديهم الحوافز، وتبدع لهم أهدافاً وأساليب وتحركهم نحن العمل الجليل الذي ترسم الصورة البطولية محتواه، وتعوّضهم من هزائم الحياة، وتشغلهم عن همومها، لكنها أيضاً تتناول شؤونهم وشجونهم»[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه برؤية الملك الظاهر بيبرس كبطل

---

(١) المصدر نفسه، ص ٦٤٠.

شعبي فذلك زاد من قيمة، بل ووزن فترة حكمه. فالحاكم أولاً وأخيراً إنسان لا يميزه عن الآخرين، إلا قيامه بمسؤولية أكبر من الجميع بحكم منصبه. ولكن ذلك لا يعني أنه لا يتساوى معهم في العبودية لله تعالى وحده فالكل أمام الله تعالى، وحده لا شريك له، واحد، بالرغم من تعدّد المسؤوليات، والاختلاف بينها. هذا، والشعب دوماً، يشكّل القاعدة للحاكم، لأن الحاكم بواقع الأمر هو ممثّل للناس في إدارة الدولة. وعليه، للتضامن بين الحاكم والمحكومين، والحفاظ على حقوق الأمة، فالحاكم المتسم بالإيمان والحكمة يضمن للناس حرياتهم، ومساواتهم أمام القانون، فيسير في سياسة توطيد العدل. هذا مع العلم بأن الإسلام، كما أورد طه حسين في كتابه «الفتنة الكبرى(عثمان)»، «إنما جاء قبل كل شيء بقضيّتين اثنتين؛ أولاهما التوحيد، وثانيتهما المساواة بين الناس، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿**يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾. وكان أغيظ ما غاظ قريش من النبي أنه كان يدعو إلى هذا العدل وإلى هذه المساواة، ولم يكن يفرّق بين السيّد والمسود، ولا بين الحرّ والعبد، ولا بين القوي والضعيف، ولا بين الغني والفقير...»[1]. فلو أبقينا تلك المعلومات في ذهننا، وعدنا إلى الملك الظاهر بيبرس لقلنا بأنه اتبع المبادىء الإسلامية المذكورة أعلاه في حكمه، مع تفهّم لأصول الحكم، وبنيته السياسية، فأنجز أعمالاً بطولية لم تسجّل في السجلاّت التاريخية فحسب، بل انتقلت إلى الرواية الشعبية

---

(١) حسين، إسلاميات، الفتنة الكبرى (عثمان)، جزء ١، ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦.

التي تقف كأصدق تعبير عن بطولته. ومن هنا، فالدراسة عن الملك الظاهر بيبرس تحتوي على مادة ضخمة بصدد موضوع الهيكل السياسي لدولة متحدة، يعطى فيه للشعب دور هام، على أساس أنه القاعدة للتحرير من الغزو الأجنبي بشتّى أشكاله. هذا، وإن إغفال دور الشعوب في الحكم، في الأطر الصحيحة، يؤدي إلى الظلم والاستبداد. والاستبداد دوماً هو عدوّ الرقي والتطوّر، وهو الذي يسهّل دوماً المهمة للغزو الخارجي، والاحتلال بكل مصائبه، وبهذا الإطار، فالدراسة عن الملك الظاهر بيبرس تفيد في مجال المعرفة للقواعد البنائية التي تحرّر الأمة من الجمود، فتفتّح أذهانها لواقع الحياة، ومجريات أحداثها، للكفاح والجهاد في الداخل، والخارج.. في الداخل، من أجل توطيد الوحدة المتمثلة في التكافل، والتعاون والتعاضد بين كل أفراد المجتمع الواحد.. وفي الخارج، لاستخدام تلك الوحدة من أجل وضع كل غزو عند حده، لإقرار الأمن، والطمأنينة للناس. أما وبلادنا العربية الإسلامية تتعرّض لتحديات، لغزو فكري، مصطحب بغزو عسكري في كثير من أقطاره، فالدراسة عن الملك الظاهر بيبرس تعطي دروساً في الوحدة، وأهميتها في النهوض لاستعادة الحقوق المسلوبة من جرّاء الاستغلال أو الاستعباد، أو استنزاف الموارد أو الاحتلال، أو بالأحرى، فالدراسة، إن أُخِذ جانب العبر منها بعين الاعتبار، تمهّد السبل لمستقبل أفضل، والتاريخ إن أفاد كعلم، فهو يفيد بعبره من الماضي. فمن الخطأ الاعتقاد بأن الماضي شيء منفصل عن المستقبل، إذ كما يقول الحكيم في مؤلفه «عصا الحكيم»: «إنما الزمن حلقات متتابعة... ولن نجد المستقبل نامياً إلّا من بذور الماضي.. وإذا كنا نحن لاهين عن مستقبلنا، فذلك

لأننا لاهون أيضاً عن ماضينا»[1]. إذن، فما أجدى بنا إعادة الاهتمام بتاريخنا العربي الإسلامي والاستفادة من ثرائه في العبر والدروس، لا لأنه طريق لمستقبل أفضل فحسب، بل لأنه أيضاً يقف كتأكيد لحضارة عظيمة أخذت وأعطت أيضاً، فما الحضارة الغربية التي يتنكر كثير من علمائها للحضارة الإسلامية، إلاّ ثمرة بعلومها وآدابها للحضارة الإسلامية التي أضاءت العالم كله لقرون بنور علمها، وهي طبعاً حضارة روحية جوهرياً، وهي تتميز عن غيرها كما يقول محمد حسين هيكل في «حياة محمد» بأن «النظام الروحي فيها هو أساس النظام التهذيبي وأساس قواعد الخُلُق، والمبادىء الخلقية هي أساس النظام الاقتصادي، فلا يجوز أن يضحى بشيء من مبادىء الخلق في سبيل التنظيم الاقتصادي»[2]. وذاك يعني أن الحضارة الروحية تركز على الجوانب الخلقية، هذا مع العلم بأنه متى تمّ التركيز على هذا الجانب، فالازدهار العلمي والثقافي يكون في أوجّه، وذاك ما تتصف به الحضارة العربية الإسلامية أيام نمائها ورقيها في السابق. وبالعودة إلى الملك الظاهر بيبرس، فقد وقف كنقطة أساسية في إفساح المجال للتطور الحضاري في أيامه، الذي لعب دوراً هاماً أيضاً في نجاحه العسكري.

وبالوصول إلى هذه النقطة، نرى ضرورة للقول إنه في أي دراسة عن الملك الظاهر بيبرس، فمن الضروري جداً التركيز على الجانب الأخلاقي في حكمه، والذي تكلمنا بموجب ما لدينا من

---

(١) الحكيم، **عصا الحكيم** (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥)، ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) هيكل، **حياة محمد** (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٩)، ص ٥٤٩.

معلومات عنه، بتحدثنا عن سياسته في الحرية، والعدل، والمساواة، وعن بنيته السياسية المركزية، التي تأتي كتجسيد لمعاني الوحدة بإطاريها المعنوي والجغرافي. ولكن نفترض أن وثائق الحرم، لو دُرِست بإطار الوحدة الفكرية، أي بإطار كل ما ورد عن المماليك في المصادر الإسلامية الأولية، فسوف تكون مفيدة في إثراء المعارف عن الملك الظاهر بيبرس وغيره، فتخرج المعرفة من الزاوية الضيقة التي رأينا الكثير منها في الجزء المعالج من قبل الكاتبة ليندا، والتي تعتمد فيها كثيراً على هدى لطفي ـ من دون توصّل هذه أو تلك غالباً، إلى نتائج مفيدة لجوهر التاريخ المملوكي بكل مناحيه ـ إلى الإطار المفيد الفعّال. هذا، وبعودة أخرى إلى تلك المقالة، في مرحلة جديدة، نرى أنه ممّا يسترعي الانتباه في مقالة الكاتبة ليندا، إضافة لما تقدّم ذكره، قولها تحت عنوان «الحياة الاقتصادية والمالية»: «كانت القدس، بصورة رئيسية، مركزاً للحجاج، ومن ثمّ لم يكن فيها صناعات متميزة، ولا كانت على خطّ أي من طرق التجارة الرئيسية بين القاهرة ودمشق، ولعل هذا ما دعا إلى الإشارات المختصرة عن الحياة الاقتصادية في المدينة. غير أن ما قامت هدى لطفي به من مسح للأسواق والبنية المهنية في القدس، اعتماداً على ما وجدته في وثائق الإرث الحشرية، جاء بمعطيات خاصة بالأسواق، والصناعات، والحِرف، والخدمات، والعملات، والصلات بين المدينة والريف، لا نجدها في أي مصدر آخر. فعلى سبيل المثال، نرى أنه بالإضافة إلى ما ورد في الوثائق من إشارات إلى العائدات المحصلة من صناعة الصابون، وعصر الزيتون، وإنتاج الخمر، فإن مصنوعات النسيج، وخصوصاً القطن، قد تكون واحدة من أهم الأنشطة الاقتصادية في المدينة. فالمشاطون

والغزّالون، والحيّاكون أكبر الفئات المهنية تمثيلاً في جردات التركات، وعلى الرغم من أن القدس لم تكن على أي من خطوط التجارة الرئيسية، فلقد كان فيها أسواق رائعة وحسنة التجهيز...»[1]. إن الفقرة تلك تظهر أن القدس كانت مركزاً للحجاج بالدرجة الأولى، ولكن تبين للقارىء بأن ذاك هو سبب وجود صناعات غير متميّزة فيها، بيد أنها لا تبدي الأسباب التي دعت للاستنتاج السريع بأن كون القدس مركزاً للحجاج، يجرّدها من الصناعات المتميّزة!! ولا تفسر في الوقت ذاته، معنى تعبير الصناعات المتميزة بالضبط. فكل عصر صناعاته التي تبيّن التطور الحضاري بين أمة وأمة، والتوصل إلى تعبير «الصناعات المتميزة» يتطلب ذكراً لصناعات العصر بإطار سريع، حتى يتم فهم «نفي التفاضل» في صناعات القدس. ثم تتجه الكاتبة دون روابط فكرية وثيقة، للإظهار بأن القدس لم تكن على خطّ طرق التجارة الأساسية بين القاهرة ودمشق، ولعلها بذلك تعود لإثبات نظريتها السابقة القائلة بأن القدس لم تكن مركزاً سياسياً، وإدارياً هاماً وبالتالي ربما لا وزن تجاري لها!! ولكن بأسلوب غير واضح، إذ بعد ذكرها للقدس كمدينة لم تكن على خطّ أي من طرق التجارة الرئيسية بين القاهرة ودمشق، تربط ذلك بما تسميه بالإشارات المختصرة عن الحياة الاقتصادية في القدس!! والإشارات المختصرة بمفهومنا تعني بأنه ربما لم يكن للقدس أهمية اقتصادية مقارنة بغيرها؛ ولكن الكاتبة تفاجىء القارىء الآن بعبارة «غير أنّ ما قامت هدى لطفي به من مسح للأسواق والبنية المهنية في القدس، اعتماداً على ما وجدته في وثائق الإرث الحشرية، جاء

---

(١) الصراع الإسلامي الفرنجي....، ص ٤٦١.

بمعطيات خاصة بالأسواق، والصناعات، والحرف، والخدمات، والعملات، والصلات بين المدينة والريف، لا نجدها في أي مصدر آخر»، هنا، بعد الانطباع الذي خلّفته ليندا فكرياً بعدم أهمية القدس الاقتصادية، كما نفهم الأمور، تدخل في مدخل أقرب للمخالف ممّا تقول. فهي تستشهد بعمل فكري يبدو مهماً في نظرها، لهدى لطفي، وهو «مسح للأسواق والبنية المهنية في القدس، والتقدم بمعطيات خاصة فيما يتعلق بالأسواق، والصناعات، والحرف، والخدمات، والعملات، والصلات بين المدينة والريف...» تلك عبارة بدورها، تحتاج للتوضيح، لأنها تتناول جوانب هامة في عالم الاقتصاد. «فالأسواق».. «الصناعات».. «الحرف».. «العملات» كلها كلمات كبيرة تحتوي على مفاهيم خلفها في مجال الاقتصاد. فهي بنظرنا تشير إلى الأهمية الاقتصادية لمدينة القدس، ولكن هنا نرى تحوّلاً، فكأنّ الانطباع الأول عن مدينة القدس بعدم الأهمية الاقتصادية بمقارنة مع غيرها، يذهب، مع لجوء الكاتبة ليندا للتحدث الآن عن إشارات عن العائدات المحصلة من صناعة الصابون، وعصر الزيتون.. وغيره، لحدّ التوصل إلى أن مصنوعات النسيج، وخصوصاً القطن، قد تشكّل أحد أهم الأنشطة الاقتصادية في القدس!! ثم تبين بأن المشّاطين والغزّالين وأصحاب الحياكة كانوا أكثر المجموعات المهنية تمثيلاً في جردات التركات.. وتنتهي للقول بوجود أسواق رائعة حسنة التجهيز في القدس، بالرغم من أن القدس لم تكن على أي من خطوط التجارة الرئيسية!! في جوّ التناقضات الفكرية فالكاتبة تحدثت عن إشارات بصدد العائدات المحصّلة من صناعة الصابون، لكنها لم تدخل في جوهر الموضوع، وهو معاني أو مضامين تلك الإشارات بالنسبة لعالم

الاقتصاد، ثم تحدثت عن مصنوعات النسيج وبالأخص القطن كأنشطة اقتصادية هامة في المدينة دون أن تشرح سبب أهمية ذلك. فصناعة النسيج، في ذلك الوقت، كانت جوهرية، وتشكل أهمية في البناء الاقتصادي، ولم تقتصر على القدس وحدها، بل كانت موجودة في مناطق أخرى من الدولة المملوكية. وهنا ينشأ السؤال الآتي: ما أوجه العلاقة بين صناعة النسيج في القدس، وغيرها من المدن في الدولة المملوكية؟ وما علاقة ذلك بالتصنيع في سياسة الحكومة المركزية؟ إن الإجابة على تلك الأسئلة تخرج القدس من حيّز التفرّد، الذي قد تعكسه مقالة ليندا في كثير من المواطن فيما يتعلق بمدينة القدس، إلى حيّز كونها مدينة ذات اهتمام خاص في السلطة المركزية. فلو أُنجِز ذلك، قد يفهم القارىء تماماً سبب وجود عبارة الكاتبة ليندا، بصدد أسواق رائعة حسنة التجهيز في القدس. ولكن، ومع ذلك أن تأتي قبل هذا بعبارة «وعلى الرغم من أن القدس لم تكن على أي من خطوط التجارة الرئيسية»، ثم تنتهي للقول «فلقد كان فيها أسواق رائعة حسنة التجهيز»، فذلك لا يحمل معه منطقية التسلسل الفكري برأينا، والتي تعطي للموضوع وزنه في الإطار الكلّي المطلوب. صحيح أن الوثائق وُجِدت في الحرم الشريف، وصحيح أن محورها القدس، ولكن القدس كانت مدينة في دولة إسلامية مرموقة قضت على الغزو الصليبي والمغولي، وأعادت الإسلام إلى عزّه، والمسلمين إلى كرامتهم، وثانية في ربط القدس الوثيق بالدولة المملوكية، فذلك من شأنه أن يعطي صورة أوسع عن العلاقة ما بين السلطة المركزية والمناطق والمدن التابعة لها.

وفي مجال آخر بصدد مقالة ليندا، المعتمدة على بعض وثائق

الحرم الشريف، فهي تتناول موضوع النساء، فتذكر الكاتبة فيها هـذه المرة بالتخصيص، بأن وثائق الحرم تعكس «وضع النساء عامة في مجتمع مسلم في العصور الوسطى أي المجتمع الذي تـدور حيـاة النسـاء فيـه بصـورة رئيسيـة ضمـن محيـط المنـزل الخصوصي. . .»[1]. ولكن تتقدم للقول بعد ذلك: «إن المحيط الاجتماعي الذي كانت النساء يعشن فيه واضح أيضاً في توزّع العمل الذي بيّنته هدى لطفي في جدولتها للمهن وللأفراد الذين يمارسونها، وتبيّن لها أن المهن التي تمارسها النساء هي، باستثناء قلة منها، تلك التي يمكن ممارستها في البيت، لقد كانت أربع وثمـانـون امـرأة، أو مـا يمثّـل ٣١٪ مـن عيّنتهـا، تعمـل فـي مشـط الخيـوط وغـزلهـا، فـي حيـن كـان الـرجـال يعملـون فـي الحياكة. . .»[2]. صحيح أن الكاتبة هدى لطفي قد استنتجت شيئاً جديداً عن وضع المرأة في القدس أيام المماليك، وكلّفت نفسها للتقدم بجدول، إلا أن الجدول ذاك لا يبرز بأهميته المرجوة، إلاّ إن توصّلت الكاتبة لتحليل عن أهمية ذلك الجدول، في علاقته بوضع المرأة عامة في العصر المملوكي. لو افترضنا أن الوضع ذاك تجلّى في عصر الملك الظاهر بيبرس بصفته المؤسس الحقيقي للدولة المملوكية، فالمتمعّن في استنتاج هدى لطفي ـ «أن المهن التي تمارسها النساء هي، باستثناء قلّة منها، تلك التي يمكن ممارستها في البيت، لقد كانت أربع وثمانون امرأة، أو ما يمثّل ٣١٪ من عينتها، تعمل في مشط الخيوط وغزلها، في حين كان الرجال يعملون في الحياكة» ـ يتساءل عمّا إذا كان انخراط تلك

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٦٧.

النسبة المئوية في العينة في مشط الخيوط وغزلها نابع عن ظروف الحرب!! فالحروب تجلب معها مآسٍ مالية في الحياة الأسرية، وخصوصاً مع انخراط رب العائلة في الحرب، واضطرار المرأة للعمل لإعالة بيتها. فلو ثبت أن الانخراط كان بتلك النسبة، للعمل من جانب النساء في ذلك العصر؛ فذاك قد يعني انخراط عدد من رجال القدس في القتال ضد الصليبيين والمغول مع الجيش العربي الإسلامي!! ما نودّ إبرازه هو ضرورة الربط بين الجدول عن عمل المرأة في مشط الخيوط وغزلها، وبين الجانب العسكري في الدولة ككل، لأنه عندئذٍ، يظهر برأينا وضع المرأة في القدس وغيرها بالإطار الصحيح، وهو الكفاح من أجل تحرير البلاد المغتصبة من الصليبيين والمغول، فتبدو صورة الدولة بعلو مشهود: انخراط الرجال للجهاد بمعناه الحربي، والنساء للكفاح بمعاني أخرى مساندة للرجال، وكله لصالح الإسلام والمسلمين. ومهما يكن، وتتابع ليندا في مقالتها الحديث عن المرأة بعلاقتها بوثائق الحرم الشريف، فتقول: «وتلقي الوثائق أيضاً ضوءاً على الحياة العائلية، وأنه لممّا يدهش فعلاً أنها تبيّن أن الأسر كانت في العادة صغيرة العدد، وقد وجدت هدى لطفي، بحسب عيّنة، أن ولداً واحداً أو ولدين أكثر شيوعاً من ثلاثة أولاد أو أربعة، وقدّرت أن معدّل أفراد الأسرة ٢,٧، وذلك أدنى من معدّل العصور الوسطى المعهود، وهو ٣,٥، لكنها تذكر أن المعدّل الأدنى قد يعكس نمط الأسرة التي تأتي إلى القدس زائرة أو مهاجرة...»[(١)]. إن وجود أسرة صغيرة العدد، أمر غير مثير للدهشة بتاتاً كما نرى الأمور، إذا ما أُخِذ وضع الدولة العام بعين

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٦٩.

الاعتبار، فإذا ما أخذنا عهد الملك الظاهر بيبرس مثلاً، ووضع من أتى بعده، حتى تحرير البلاد من الصليبيين والمغول، فحجم الأسرة قد يعود لحاجة الدولة لرجال للقتال، وانخراط من انخرط في الجهاد. في تلك الأحوال، فقد يستشهد ربّ الأسرة، وقد يصبح معاقاً غير قادر على العمل والإنفاق، حتى ولو عملت زوجته، فتُحدّ الأسرة في حجمها عمّا كانت عليه في الظروف العادية، فالظروف تحكم عادة في المتغيرات، وحجم الأسر في وقت أو آخر له ارتباط وثيق في الوضع العسكري. على أننا نعتقد أن قول هدى لطفي «إنّ المعدّل الأدنى قد يعكس نمط الأسرة التي تأتي إلى القدس زائرة أو مهاجرة» فذاك يتطلب إثباتات لتوثيقه، وطالما أن الإثباتات تلك ليست موجودة أمامنا في المقالة، فيبقى استنتاجها في حيّز التكهّن. ونكرر هنا بأن كل استنتاج مقبول، يجب أن يكون قائماً على قواعد أساسية راسخة، بدلائلها وبراهينها، وإلاّ لبقيت النتائج في حيّز الظن الذي لا يفيد التاريخ إجمالاً. ومن هنا، فالأفضل مرة أخرى دراسة وضع محدودية حجم الأسرة في ضوء الحالة العسكرية السائدة وقتئذٍ، إضافة إلى عوامل أخرى.

من النقاط الأساسية من وراء دراستنا لمقالة ليندا ـ إضافة لما تقدّم ـ هو التوصّل للقول بضرورة صبّ عناية أكبر بصدد دراسة وثائق الحرم الشريف. فوجود وثائق مثل تلك كنز للتاريخ، وخصوصاً أن العثور عليها تمّ في الحرم الشريف، فلو أُنجِزت دراستها بشكل أعمق بنظرنا، لا بإطار التجزئة، بل بإطار الشمولية، فلربما حظينا بمعلومات أكبر عن تاريخ المماليك، بما في ذلك الملك الظاهر بيبرس، من كل ناحية، تخصّ نظام الدولة

وأحوالها في عصره، ولكان في دراسة الوثائق عندها أهمية خاصة بها. أما أن تدرس الوثائق تلك في حدود ضيقة إجمالاً، فهي وإن أعطت معلومات عن القدس، لكنها وضعت المدينة في حيز الانفرادية في كثير من المواطن، بموجب فهمنا للأمور. ولهذا، مع تقديرنا للجهد الذي بذلته ليندا في مقالتها، أو لجهد هدى لطفي التي تعتمد عليها، فباعتقادنا، ربما لا يزال الطريق البنائي طويلاً لإضفاء الروح الحقيقي، أو الجوهر على المعاني الواردة في ذلك الجزء المدروس من الوثائق. وعندما تبرز تلك المعاني، تكون الإضافة لعالم المعرفة الإسلامية في التاريخ المملوكي، في أساسه، أمراً جوهرياً. أما أن تترك الوثائق بدراسات محدودة غالباً في أفقها العام، بالإطار الذي شرحناه أعلاه، فتكون المساهمة برؤيتنا للأشياء جزئية، وتتطلب الكثير. ولكن، مهما يكن من أمر، فكل بناء ضخم يحتاج إلى مراحل، ولعلّ في دراسة ليندا في مقالتها، مع تعليقات هدى لطفي، أول مرحلة تتبعها مراحل منهما، أو من غيرهما من الكتّاب، من مشارق الأرض ومغاربها.

المصادر

١ ـ الأشتر، صالح، وآخرون، (إشراف)، **أعلام خالدون: الظاهر بيبرس**، بيروت: دار الشرق العربي، لا. ت.

٢ ـ أمين، أحمد، **كتاب الأخلاق**، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٤.

٣ ـ حسين، طه، **إسلاميات، الفتنة الكبرى (عثمان)**، جزء ١، بيروت: دار العلم، ١٩٨٤.

٤ ـ .... **إسلاميات، مرآة الإسلام**.

٥ ـ الحكيم، توفيق، **تحت شمس الفكر**، بيروت: دار الكتاب اللبناني، لا. ت.

٦ ـ .... **عصا الحكيم**، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٥.

٧ ـ شكيل، هادية دجاني؛ وبرهان دجاني (إشراف)، **الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى**، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٤.

٨ ـ العبادي، أحمد مختار، **في تاريخ الأيوبيين والمماليك**، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٩٥.

٩ ـ العسلي، بسام، **الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة**، بيروت: دار النفائس، ١٩٩٢.

١٠ـ .... **المظفّر قطز ومعركة عين جالوت**، بيروت: دار النفائس، ١٩٩٢.

١١ـ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، مجلد ١، بيروت: دار المعرفة، لا. ت.

١٢ـ القضاة، أمين؛ والهزايمة، محمد عوض، **محاضرات في التاريخ الإسلامي**، عمّان: دار عمّار، ١٩٩٢.

١٣ـ قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، مجلد ٤، ٥، ٦، القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٩.

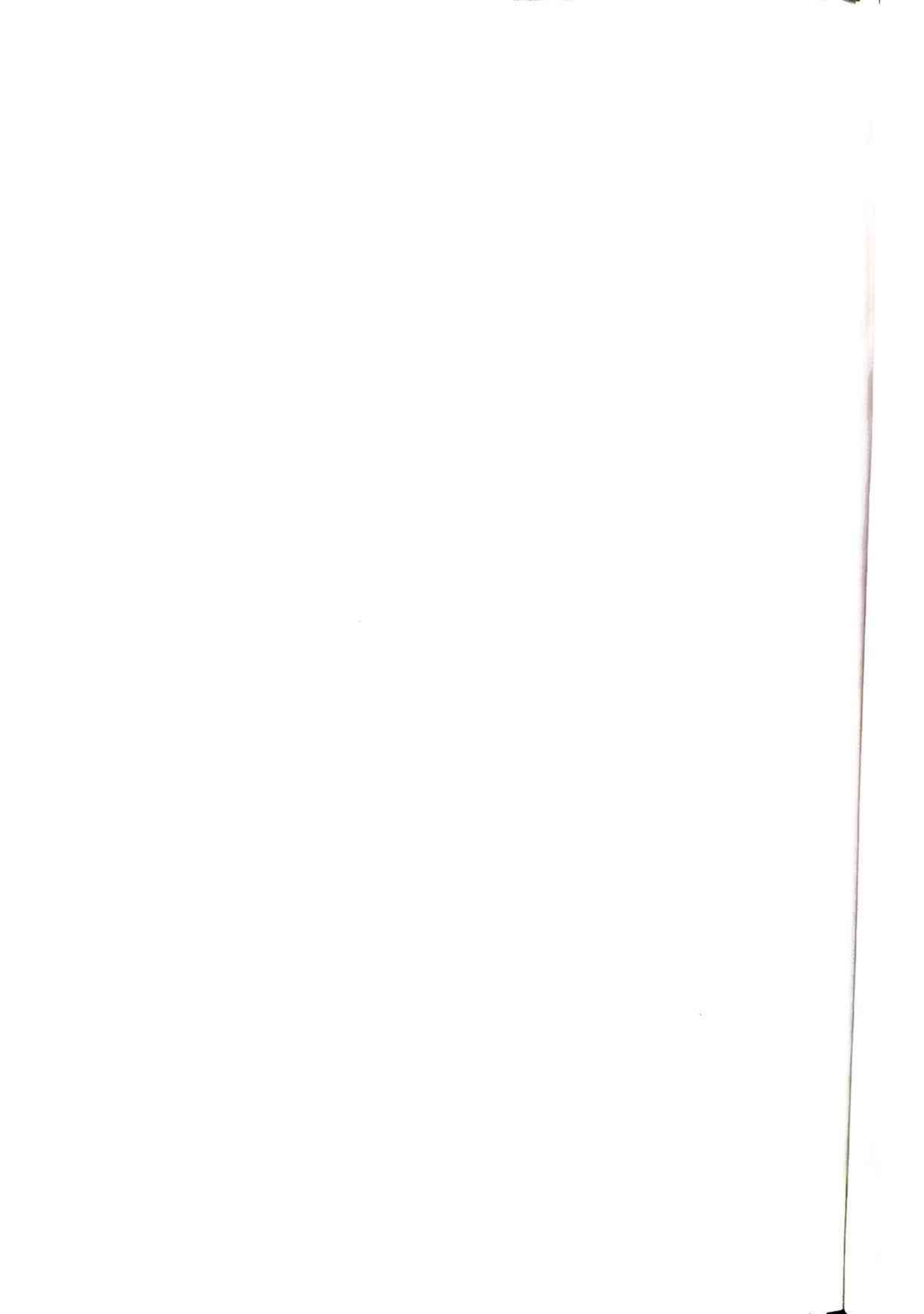
١٤ـ كاشف، سيدة إسماعيل، **صلاح الدين الأيوبي**، القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٦.

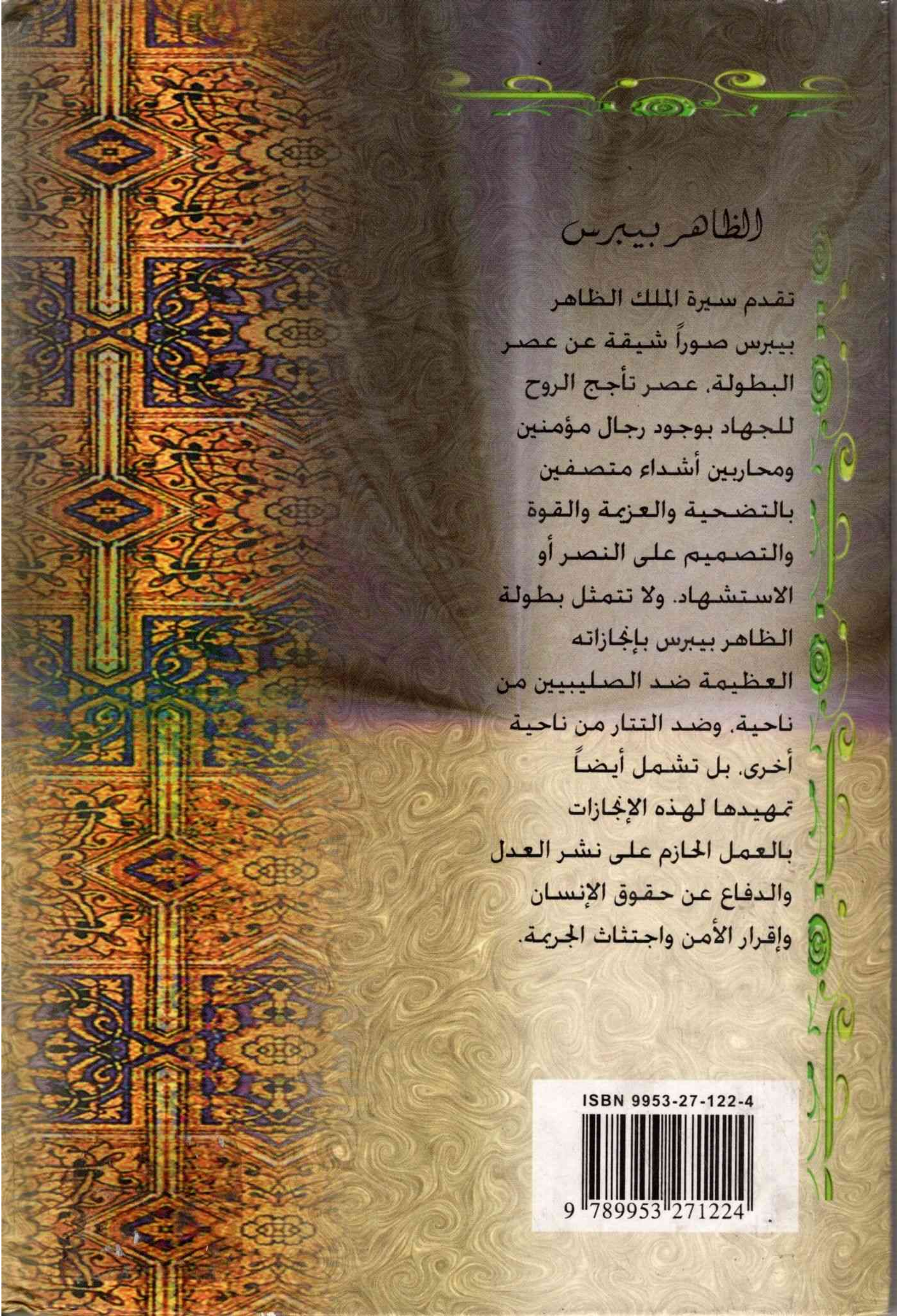
١٥ـ محمود، شفيق جاسر أحمد، **القدس تحت الحكم الصليبي ودور صلاح الدين في تحريرها**، المدينة المنوّرة: مكتبة الدار، ١٩٨٩.

١٦ـ هيكل، محمد حسين، **حياة محمد**، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٩.

١٧ـ .... **الفاروق عمر**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٠.

فهرس المحتويات





الظاهر بيبرس
تقدم سيرة الملك الظاهر
بيبرس صوراً شيقة عن عصر
البطولة، عصر تأجج الروح
للجهاد بوجود رجال مؤمنين
ومحاربين أشداء متصفين
بالتضحية والعزيمة والقوة
والتصميم على النصر أو
الاستشهاد. ولا تتمثل بطولة
الظاهر بيبرس بإنجازاته
العظيمة ضد الصليبيين من
ناحية، وضد التتار من ناحية
أخرى، بل تشمل أيضاً
تمهيدها لهذه الإنجازات
بالعمل الحازم على نشر العدل
والدفاع عن حقوق الإنسان
وإقرار الأمن واجتثاث الجريمة.
ISBN 9953-27-122-4
9 789953 271224